لنا عبد الرحمن

صندوق كارتوني يشبه الحياة

قصص قصيرة

الكتاب: صندوق كارتوني يشبه الحياة (قصص قصيرة)

الكاتب: لنا عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢٢



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبد الرحمن ، لنا

صندوق كارتوني يشبه الحياة (قصص قصيرة) / لنا عبد الرحمن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٢٦٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٢٥٤ / ٢٠٢١

صندوق كارتوني يشبه الحياة





صندوق كرتوني يشبه الحياة

اسمع يا خليل.. حكايتي مع سلمى بسيطة، في غاية البساطة، لكنني لم أنسها بسهولة.

تخيل أنك تمشي في الشارع، ثم فجأة يظهر أمامك صندوق كرتوني كبير، ويُفتح من تلقاء نفسه وتنطلق منه أشياء سحرية وحدك تراها، مظلة تعزف ألحانا ثم تطير في السماء، قزم يرقص وهو يرتدي قبعة حمراء، تنين مجنح يطلق النيران من فمه، جنية لطيفة تحلق على مستوى بصرك، فتحول غبار المدينة إلى ألوان قوس قزح، تحيل الشوارع المزدحمة والقذرة إلى شوارع يتجمهر فيها الناس ببهجة كما لو أنهم يستعدون لكرنفال.

كان عبور سلمى في حياتي يشبه هذه التفاصيل، مع الفارق، أني التقيت في عالمها مع «مسرور» سياف «ألف ليلة وليلة».. أنت لا تصدقني، لكن هذا ما حدث بالفعل، إذ بعد لقائي إياها بساعات ذهبنا إلى بيتها، وهناك فوجئت بوجوده، صاحب جسد ضخم، أسود، مفتول العضلات، يلعب بجنزير ثقيل من الحديد.

سأحكي القصة من البداية..

في نهار مثل كل الأيام، المملة، الروتينية، المتشابهة، التي تبتلع عمري، استيقظت وفعلت ما أفعله كل يوم، تلك التفاصيل تبدو لي ثقيلة جدًّا، الاغتسال الصباحي، تنظيف أسناني، تسريح شعري، ارتداء ثياب نظيفة، تناول الطعام والذهاب لوظيفتي التي مضى على وجودي بها أكثر من ربع قرن؛ إحساسي بثقل التفاصيل منحني إجابات عن أسئلتي عن خروج الناس من بيوتهم في هيئات مزرية، لأول مرة غمرني تعاطف حقيقي نحو هؤلاء الذين أصابتهم لعنة الملل مثلي، والتساؤل عن جدوى التمسك بالتفاصيل اليومية الروتينية البسيطة لمواصلة الحياة.

في ذلك اليوم، أخذت معي دفتري الذي أكتب عليه سيناريو فيلمي الجديد. كلما شاهدتني زوجتي وأنا أستعد للخروج من البيت أحمل الدفتر في يدي، نظرت إليّ تلك النظرة الساخرة التي أعرفها. هذه المرة كانت تكوي قميصي الأبيض، المكواة في يدها اليمنى، ترتدي ثوب نوم بدون أكمام، قلت في سري إن موهبتها في التمثيل جيدة، لكنها مثلي لم يحالفها الحظ، كنت أعرف أنها تقول في سرها إنني

السبب في فشلها، منذ أن أدت دور البطولة في الفيلم الأول الذي كتبت قصته، وفشل فشلًا ذريعًا. بعد ذلك توارت زوجتي عن الشاشة، وحين أقول توارت أعني أنها اختفت فعليًا، أنجبت طفلين وأنهت علاقتها بالعالم الفني، وتركتني وحدي أعيش أحلام كتابة فيلم يعيدني إلى دائرة الضوء. آه، صحيح، يجب أن أكون دقيقًا في تعبيراتي، لم أكن في دائرة الضوء كي أعود إليها.. المهم يا خليل، سأعود إلى حكاية سلمى، في هذا اليوم الممل مثل سائر الأيام، كنت أتوجه إلى عملي، ركبت المترو، ونزلت في محطة العتبة، ومشيت إلى شارع شريف، في هذا الصباح الصيفي اللطيف رأيت مشاجرة في إحدى زوايا الشارع، كان هناك ثلاثة شباب وفتاة، يدور بينهم عراك لا أعرف سببه، لكنه أثار فضولي لمعرفة أسبابه.

أنا لست ذاك الشاب القادر على التدخل لمواجهة شباب يعاكسون فتاة في الشارع، الأمر ليس كذلك، لكن من وسط بؤرة الظلام أو الزحام، كانت عيناها تلمعان وتتوسلان كي أقترب، كانت على وشك أن تناديني باسمي، أو هذا ما تخيلته، لذا اقتربت، عبرت الجموع واتجهت نحو الفتاة، سحبتها من يدها وأنا أقول: «ابْعِدْ انْتَ وهُوّا»، كان في صوتي لحظتها، قوة

جبارة، حاسمة، هل تعرف تلك القوة التي تأتي إليك فجأة مثل قبس نور من إله غامض، فتجعلك مهابًا في أعين الجميع، كما لو أنني هرقل، أو شمشون الجبار، اتسعت الدائرة وعبرت أنا وهي مثل ملك وأميرة، إي والله.. كان اللغط يدور خلف ظهري، يشبه التحليلات الفلسفية بعد حدث كبير، لكن هذا التفصيل هامشي ومجرد استكمال للصورة، الحدث سيكتمل حين أقول لها: «ما رأيك لو نجلس هنا؟». كنت أشير بيدي نحو مطعم فاخر، يقدم قهوة وإفطارًا لذيذًا عند الصباح، وقائمته مزدحمة بوجبات لحوم ودجاج عند الظهر وفي المساء.

حين جلسنا في المقهى، طلبت هي بيكاتا بالمشروم، آه فعلًا هذا ما حدث.. «بيكاتا على الصبح»، هكذا قال الجارسون مندهشًا من الطلب، ردت عليه سلمى بقوة: «آه الصبح.. وانت مالك؟». عاد الجارسون بعد أقل من ساعة، وضع أمامها طبق بيكاتا بالمشروم والأرز، كنت حينها أشرب قهوتي، وأحكي لها عن الفيلم الذي أنوي كتابته. لم يبدُ أنها مهتمة بما أقول، كانت تأكل بنهم، بدا لي أنها جائعة جدًّا، ورغم هذا لم تكمل الطبق كله، ونادت الجارسون وطلبت أن يضع لها ما تبقى منه في علبة بلاستيكية. لم تحكِ عن الحدث

الـذي أدى لتعارفنـا، الشـباب الثلاثـة الـذين اجتمعـوا حولهـا وحاولوا التحرش بها في أحد الشوارع الجانبية، بل غيرت مجرى الحديث حين حاولت معرفة إن كانت تعرفهم، أو إن كان ما حدث مجرد صدفة. كل ما قالته لي: «هذا يحدث معي دائما». جملة مبهمة لم تضف عليها أي توضيح، ما الذي يحدث معها دائمًا، التحرش؟ أم لقاء شخص غريب مثلي؟

قامـت إلى الحمـام، تمليـت مـن قوامهـا المعتـدل الأميـل للطول، كانت بيضاء تلك الدرجة من لون البشرة القشدي، شعرها طويل فاحم السواد. عيناها السوداوان ذكرتاني بشطر بيت الشعر القائل:

«الوجـه مثـل الصـبح مبـيض والشـعر مثـل الليـل مسود». وجنتاها مرتفعتان، وذقنها رقيق، شفتها السفلى وردية وتتـدلى قلـيلًا إلى أسـفل. كانـت ترتـدي بنطلـونًا مـن الجينـز الضـيق، وبلـوزة ذات لـون برتقـالي شـاحب، وهـي عائـدة كـان نهداها يرتجان مع كل خطوة، خمنت أنها ترتدي حمالة صدر رخـوة، تجعـل ثـدييها يتقـافزان. لم تكـن قـد تجـاوزت الخامسـة والعشـرين مـن عمرهـا، علـى مـا أظـن، وكنـت قـد تجـاوزت الخمسين بكثير من الأعوام.

كيف أشرح لك يا خليل.. سلمى لديها تلك الطلة الملكية، ربما هي ليست فاتنة الفاتنات، لكنها تمتلك نظرة مترفعة تتحدى العالم بسخرية واضحة، لكن ليس هذا هو المهم فقط، سلمى خلقت في داخلي حالة من الفرح، أنا عاجز عن الشرح، أو الوصف بدقة لما حدث معي، لكن دعني أكن محددًا، كي لا يلتبس عليك الأمر، لا، ليس الحب ما أعنيه، ولا الرغبة، هذا لا يعني أنني لم أرغب بها، بل على العكس هذا كان متاحًا منذ الساعات الأولى، بعد أن غادرنا المقهى قالت لي بوضوح: «أنا تحت أمرك»، جملة غامضة نوعًيا ما، ممكن أخذها على أكثر من وجه، لكنني ابتسمت وقلت لها، إن لدي رغبة بالمشي على كورنيش النيل، رحبت بالفكرة وسرنا سويًا لمدة ساعتين.

لم أعرض عليها أن نترافق للسرير لأسباب نفسية تتعلق بطقوسي فيما يتعلق بالجنس، أي: أمن المكان ونظافته. فكرت أين سأذهب معها؟ وأين سأكون على راحتي، أنا لا أحب ممارسة الجنس إلا في بيتي، حتى علاقاتي وخياناتي الزوجية قمت بها في غرفتي، خليل.. أنت رجل وتدرك أن الجنس والخوف لا يجتمعان، في المرات التي حاولت فيها ممارسة الجنس في أماكن

أخرى غير بيتي، فشلت فشلًا ذريعًا، لكن يبدو أن الأمر يتعلق بتجاربي الأولى مع الفنادق الرخيصة، وما حدث بها من فضائح. لا أريد الخوض في الماضي الآن، سأعود إلى حكايتي مع سلمى وأوضح أن السبب الأول في تفضيلي المشي على الجنس هو عدم توفر مكان آمن، زوجتي لن تذهب للمبيت عند أمها كما يحدث مرتين في الأسبوع، هذا لن يحدث إلا بعد يومين، وعليّ الانتظار إذن، والحفاظ على علاقة جيدة مع سلمى. لا أستطيع الجزم بأن سلمى بائعة هوى، أخبرتني أنها تعمل سكرتيرة في شركة، وأنها تدرس في الجامعة المفتوحة، ضحكت وهي تخبرني عن دراستها، أبديت تعجبي، حينها قطبت حاجبيها واعتبرت أنني أستهزئ بها.

لم أذهب للعمل في ذاك اليوم، أنا موظف حكومة ولديّ فائض من الإجازات. سأستفيد من كل تلك الإجازات في نزهات مثيرة مع سلمى أعيد فيها اكتشاف القاهرة من جديد.. تجولنا في شوارع وسط البلد، وأمسكت سلمى بذراعي ونحن نعبر الشارع، وفي كل مرة كنا نضحك كثيرًا. ثم تناولنا الآيس كريم من محل "العبد"، كانت سعيدة، وكنت سعيدًا، وفي آخر اليوم، كان على كل منا أن يعود لعالمه، لكنني لم أقوَ على

فراقها قبل أن أتيقن من رؤيتها من جديد.. هل هذه حماقة، آه ربما!

رفضت سلمى في البداية أن أمضي معها لأعرف أين تسكن، أعطيتها مبلغًا من المال قبل أن تغادرني، وضغطت على يدها في شبه توسل كي أوصلها إلى بيتها.

صعدتُ معها في المترو، ثم نزلنا في محطة «الجيزة»، ثم ركبنا «ميكروباص» مضى بنا في مجاهل لم أرها في حياتي، وبعد أن نزلنا من الميكروباص ركبنا في توك توك، ثم بعد نزولنا من التوك توك أخبرتني سلمى أن علينا المشي قليلًا وسط طريق ترابي ومتعرج، مليء بالحفر، وعلى جانبيه بيوت متلاصقة بشكل عشوائي. إنه عالم جديد بالنسبة إليّ، بدت لي سلمى في تلك اللحظة مثل وردة ملقاة في القمامة، وبدا لي الصندوق الكرتوني الذي انفتح في وجهي صباحًا، أشبه بصندوق حديدي يصدر غازات سامة. تحسست دفتري الذي أكتب فيه سيناريو الفيلم الجديد، حسنًا، ها أنا أمام حكاية واقعية، لا بأس، ربما يأتي كُتاب السيناريو إلى هذه العوالم كي يستوحون منها قصصًا لأعمالهم.

بيت سلمى عبارة عن ثلاث غرف متلاصقة مثل عنابر السجن، لا توجد فيه كهرباء، ولا ماء. كل شيء فيه ملفوظ إلى الخارج، حتى أطباق الألمنيوم والأواني المحروقة التي يطهون فيها طعامهم متروكة أمام باب البيت. لا أستطيع وصف والدة سلمى بدقة، من الممكن للكاميرا أن تنقل لك صورة تلك المرأة، لكن لغتي لا تسعفني.

حسنًا يا خليل، دعني أختصر عليك، والدة سلمى عاهرة سابقة، باترونة حالية، شيء من هذا القبيل، حين شاهدتنا نقترب، كانت تجلس على مصطبة البيت، ترتدي قميص نوم وشعرها منكوش، في يدها سيجارة، أسنانها متآكلة ومنخورة، بدأت أحس بالخوف حينها، من غير المعقول لهذا الكائن البشع أن ينجب ذاك الكائن البديع، نقلت بصري بين سلمى وأمها، في الحقيقة كان هناك شبه في عظام الوجه وتدلي الشفة السفلى، بادرت بالصراخ في وجهها: «جايبة مين معاكي النهاردة؟»، لم ترد سلمى، ألقت في حضن العجوز علبة سجائر سحبتها من جيب بنطالها الجينز، ثم مضت وهي تشدني من يدي نحو الداخل.. هل وقعت في عصابة؟ لكنني لم أرغب بالفرار، كنت أحس بخدر لذيذ. سحبتني سلمى إلى إحدى

الغرف، اقتربت مني وحاولت فك أزرار قميصي.

- لا.. لا، ليس الآن.

بدت مندهشة لرفضي، هي لا تعرف لِمَ أتيت معها إذن، ولِمَ أعطيتها المال.

قلت لها: «يوم الخميس عندي في البيت».

هزت برأسها إشارة بالموافقة، قادتني من يدي لأغادر المكان. في الخارج كان يوجد رجل أسود ضخم الجثة يشبه السياف مسرور في «ألف ليلة وليلة»، لا أدري، أحسست بأنني رأيته من قبل، هل كان ضمن الذين تشاجرت معهم سلمى في الصباح؟ لم أتمكن من الجزم بالأمر، أشياء كثيرة تخيل إليّ منذ هذا الصباح.

اعترض مسرور طريقنا، وهو يلوح بيديه بجنزير حديدي ضخم، كان على وجهه أمارات شر وشراسة لا تخطؤها العين. قالت سلمى، إن هذا أخوها الأكبر. اقتربت منه وهمست في أذنه بكلمات لم أسمعها.

مشيت معي في الطريق الترابي، وركبت التوك توك معي

أيضًا، ثم رافقتني إلى الميكروباص، حينها رفضت أن ترافقني أكثر وطلبت منها العودة إلى بيتها.

خليل.. الحياة مملة بعد الخمسين أليس كذلك؟ لا، لم ألتقِ سلمى مرة أخرى، أعطتني رقم هاتف لا يجيب. ومن المستحيل أن أعرف طريق بيتها من جديد، كما أنه من المستحيل أن يتكرر اليوم الواحد مرتين.

آنهيمالا

قررت آمنة – وهذا ليس اسمها الحقيقي – الذهاب يوم الأحد إلى المسبح. أقنعتها صديقتها فرحهالو، بأن المسبح يوم الأحد يكون فرصة لأشياء كثيرة، لعل أهمها من وجهة نظر فرحهالو مواعدة شباب مناسبين للرفقة والتنزه طوال اليوم. أما آمنة فقد بهرها حديث فرحهالو عن المسبح، وعذوبة الماء، ورقص الفتيات قرب حوض السباحة، والوقت الضائع في الاسترخاء المفقود.

العائلة التي تعمل عندها آمنة اختارت لها هذا الاسم بدلًا من اسمها الحقيقي «آنهيمالا»، فقد غير سيد البيت اسمها لأنه صعب ولن يتمكن هو والأطفال من نطقه بسهولة، كما طلب منها أن تضع غطاء الرأس على شعرها، لكنه لم يمنعها من الذهاب في يوم الأحد إلى الكنيسة، لأداء شعائرها. وكما لو أن عبارة «للمرء حظ من اسمه» انطبقت تمامًا على آمنة، إذ بعد حصولها على الاسم الجديد صار لديها نوع من الإيمان

المتدفق، بحيث لا يمكنها أن تفوت يوم أحد من دون الذهاب للكنيسة والاستماع للقداس، والصلاة أمام تمثال السيدة العذراء، والتضرع لها. وبعد الانتهاء من الصلاة، كانت تتسكع طويلًا في الشوارع، وأحيانًا تتعرف بخادمات أخريات في الكنيسة أو الشارع، فيترافقن معًا إلى شاطئ البحر، ليتنزهن هناك، حتى موعد عودتهن في الساعة الرابعة، بما أن الأحد هو اليوم الوحيد الذي يسمح فيه لهن بالخروج من البيت.

لكن آمنة في معظم الأحوال لم تكن تغيب لوقت طويل يوم الأحد، فقد كانت تغادر رفيقاتها بعد ساعة، أو ساعة ونصف الساعة على الأكثر، لأنهن يبدأن بالتغامز والاتفاق على مشاريع بدت غامضة بالنسبة إليها في أول الأمر، لكنها عرفت فيما بعد أن حياتهن في هذا البلد الغريب، تسير بجهد مضنٍ يجعلهن ينتظرن يوم الأحد بفارغ الصبر، كي ينفسن عن رغباتهن المكبوتة.

تركت آمنة في بلدها البعيد، زوجًا، وطفلًا صغيرًا، ربما لهذا السبب لم تكن مقتنعة بمشاركة رفيقاتها باللهو، لذا كانت مخلصة في عملها، وفي صلاتها أيضًا، هذه هي المرة الأولى التي تغادر فيها بلدها نحو بلد غريب، هي لم تعمل سوى في حقول

الشاي، وجاءت إلى هنا بناء على عقد عمل مدته عامان، لا بد أن ينتهي في وقت ما، وستعود حينها إلى بلدها وأسرتها، ومعها مبلغ جيد من المال. وحتى ذلك الحين، هي مستمتعة بالطعام اللذيذ الذي تحصل عليه، وبالمبيت على سرير نظيف، وبإجازة يوم الأحد. كان ما يزعجها فقط نوبات السعال التي تسبب لها الحرج أمام أفراد الأسرة.

سيدتها، كانت امرأة ذكية، فقد سمحت لصديقتها فرحهالو التي تسكن في المبنى المقابل بزيارتها مرة أو مرتين في الأسبوع، كي لا تلتقيها آمنة بعيدًا عن أعين العائلة، حيث تحدث أمور بين الخادمات لا أحد يعرف أين تنتهي. تعرفت آمنة إلى فرحهالو عبر البلكون، في البداية ظلتا تتبادلان الإشارات لأيام، ثم التقتا في الشارع حين كانت آمنة تشتري أغراض البيت، وحين عرفت سيدتها أن فرحهالو تعمل عند عائلة مجاورة ومعروفة، أي أنه لا يوجد خطر من لقاء الخادمتين. سمحت لآمنة بالتزاور مع فرحهالو، وبالترافق في الذهاب معها إلى الكنيسة يوم الأحد، على الرغم من أن زيارة الكنيسة لم تكن ضمن مشاريع فرحهالو المفضلة ليوم الأحد.

خلال الزيارات، كانت الخادمتان تجلسان في المطبخ، وتقوم

آمنة بعملها خلال وجود فرحهالو، إلا أنهما كانتا تتخاطبان بلغتهما التي لا يمكن أن تفهمها السيدة بأي حال من الأحوال، وغالبًا ما كانتا تشكيان لبعضهما سوء تصرفات السيدات، وغرورهن، ولؤمهن، وشرهن المتأصل في معاملة الخادمات، بالإضافة إلى الشكوى من الأطفال وتربيتهم الفاسدة، كما لا يخلو الكلام من الشوق والحنين إلى البلد البعيد، والأهل والزوج الصبور الذي ينتظر عودة زوجته.

كانت آمنة سمراء، بلون الشوكولا البنية، نحيفة جدًّا، وقصيرة، لا يوجد أي جزء بارز في جسدها، شعرها قصير، ملامحها أقرب إلى الغلام، لذا لا يمكن إعطاء سن محددة لها، من الممكن أن تكون بين الثامنة عشرة والثلاثين. أما سنّها حسب الأوراق الرسمية، فقد كانت ٢٣ عامًا، وحسب أقوال أمها ٢٤، لكنها لا تهتم كثيرًا بهذا التفصيل المبهم ، لعل أكثر ما يعنيها الآن، البقاء في هذا العمل، لأنها رغم كل ما تعانيه في عملها هنا يظل أكثر رحمة من ساعات عملها الطويلة تحت أشعة الشمس في حقول الشاي.

فرحهالو كانت أكثر جمالًا منها، رغم أن لونها بني أيضًا، لكنه أكثر لمعانًا، كما أنها تتمتع بقامة فارعة نسبيًا، مقارنة

بآمنة، لديها مؤخرة بارزة وخصر نحيف، وساقان متناسقتان. وكان في عيني فرحهالو بريق وجرأة واضحة لا تخفى على أحد. في المقابل، كانت عينا آمنة مثل نور خفيف شاحب لفأر أسمر مذعور.

كان الذهاب للمسبح يوم الأحد في أيام الصيف، المتعة المفضلة عند فرحهالو، متعة لا يمكن الحصول عليها إلا مرة أو مرتين في الشهر لعدم قدرتها على دفع رسم الدخول للمسبح، وما يتلو ذلك من مصروفات إضافية ثمنًا للطعام والعصير، حيث الثمن مضاعف في المسبح.

انعكس انتظار يوم الأحد على آمنة أيضًا، نتيجة تشجيع فرحهالو لمرافقتها للمسبح. أوضحت لها أنها تحتاج إلى شراء مايوه، كما تحتاج إلى نفقات الدخول للمسبح، أي أن الأمر كله سيصل إلى مبلغ ٥٠ دولارًا تقريبًا، ما يعادل ثلث راتب آمنة. لكنها بعد تردُّد دام أسبوعين، وافقت على الذهاب، وأعطت فرحهالو المال لتشتري لها المايوه. كانت تحس بالغضب لأنها علمت من أمها أن زوجها روبير يسهر كل ليلة في البار، ويرافق الفتيات إلى بيته، وأنه لا يسأل عن ابنهما، وينفق المال الذي ترسله له على متعه الشخصية.

أمام المرآة، في الحمام، كانت آمنة ترتدي المايوه الذي أحضرته لها فرحهالو يوم السبت، كانت تستعرض جسدها في المايوه المكون من قطعة واحدة، من اللونين الأخضر والأصفر، مفتوحة عند الظهر، لأول مرة أحست بأن جسدها النحيل ولونها الأسمر لا يسببان لها إحساسًا بالدونية، غمرها إحساس بالامتلاء، وبأنها جميلة، بل جميلة جدًّا، وبأنها يجب أن تذهب للمسبح كلما تمكنت من ذلك، مثل فرحهالو تمامًا.

كانت السيدة هي التي لاحظت وجود بقع دم على منديل آمنة، راقبتها أكثر من مرة وهي تسعل بشدة، ثم تأكدت بما لا يدع مجالًا للشك أن هناك بقع دم تندفع من صدر خادمتها كلما سعلت. أخذت السيدة قرارها بإعادة آمنة لمكتب تشغيل الخادمات، لكنها كانت بحاجة إلى سبب قوي يمكنها من إعادة الخادمة ومحاولة استعادة المال الذي دفعته لإحضارها من بلدها.

في الصباح الباكر من يوم الأحد، طلبت السيدة من آمنة أن ترتدي ثيابها لترافقها إلى المستشفى، حاولت السيدة أن تشرح لها ضرورة الذهاب إلى المستشفى لإجراء التحاليل اللازمة، لكن آمنة هزت رأسها بالرفض، موضحة أن اليوم هو

إجازتها الأسبوعية، ولا يحق للسيدة أن تفرض عليها شيئًا، كانتا تتفاهمان بمزيج من اللغات والإشارات، بحيث لا توجد جملة كاملة من الممكن أن تفهمها إحداهما من الأخرى. فقد اكتشفت السيدة أن آمنة لم تعترض من قبل على أي نوع من الأوامر أو التعليمات، لذا لم تكن تدخل معها في جدل، أما الآن وهي تحاول إقناعها بخطورة الموقف، فقد ارتفع صوت آمنة عن مستواه المعتاد لأول مرة منذ دخولها إلى هذا البيت. كانت آمنة تتحدث بصوت مرتفع، وبعبارات متتالية، بلهجتها المحلية طبعًا، التي لم تكن السيدة تفهم كلمة منها، لذا لم تفهم أبدًا حكاية المايوه والمسبح، وما اتُّفق عليه بشأن يوم الأحد، لم تفهم أي شيء إلا بعد أن اندفعت آمنة وعرضت في وجه سيدتها المايوه بلونيه الأخضر والأصفر، ثم خرجت مندفعة خارج البيت وبيدها المايوه.

ربما فهمت حينها أن آمنة كانت تقول لها: «ماذا أفعل بالمايوه.. ماذا أفعل بالمايوه».

أما السيدة فقد ظلت تنظر بذهول إلى باب الشقة المفتوح، وإلى منديل أبيض عليه بقع حمراء من الدم، ألقته آمنة على الأرض قبل أن تغادر.

البحر يتجه شمالا

تلك الطفلة، أخبرته بأنها فقدت والدها، منذ زمن طويل. حكى لها أنه فقد والدته أيضا. بكيا معًا. لم تمسح دموعه، ولم يطلب منها أن تتوقف عن البكاء. ظلا في مكانهما، صامتين، يرنوان نحو البعيد، وينتظران مضى العاصفة.

كان كل منهما يستعيد ذاكرته، بتعاطف مشوب بالحاجة إلى رؤية الآخر أكثر سلامًا، لكن خلال سيرهما على الشاطئ المليء بالحصى، لفت انتباهه طرف ثوبها الوردي المشغول بخيط رفيع من الدانيل، كان طرف الثوب يلامس الحصى. راوده احساس أن ذاك الحصى مبتهج الآن بملامسة حافة الثوب له.

«كلنا بحاجة إلى البوح، لتنظيف جراحنا»، هكذا قالت له.

سمع هذه العبارة مرارًا، لكنه أحس بأنها المرة الأولى التي يسمعها بلا نغمة مكررة. لم يسألها كيف فقدت أباها، ولا باح لها بحكايته، بل أخبرها بأنه سيقص عليها ماذا فعل به البحر.

حينما كنت صغيرًا، كانت أمي تأخذني معها إلى البحر. لم تكن هناك مواعيد محددة لذهابها، ربما كانت تستغل الأيام التي يغيب فيها جدي أو يسافر إلى دمشق، ثم كانت تطلب مني ألّا أبوح أمامه بأننا ذهبنا إلى الشاطئ.

الوصول إلى البحر يتطلب منا أن نعبر مسافات طويلة، من بلدتنا في بعلبك إلى بعلبك المدينة، ثم إلى شتورة، مرورًا بزحلة، ثم ضهر البيدر وصوفر وبحمدون وعالية، نمر بكل الطريق الجبلي الطويل قبل وصولنا إلى بيروت كي نلتقي رجل البحر. الرجل الذي يشتري لي البيبسي والشوكولا، ويعد لها وجبة من السمك المقلي في بيته الصغير المطل على البحر، لم يكن بيتًا على ما أذكر، كان أشبه بالكوخ.

ما إن نصعد إلى سيارة التاكسي حتى تتناول من حقيبتها شريط كاسيت، تمد يدها إلى السائق وتطلب منه أن يضعه. كانت أغنية عن البحر أيضًا. كنت أرى السعادة تثب من عينيها، وهي تحتضنني وتقبلني على جبيني وخدي وتسألني إن كنت أحس بالعطش أو الجوع. تناولني زجاجة عصير أناناس، وقطعة من الشوكولا وتطلب مني أن آكلها.

حين يراني رجل البحر برفقتها، يرفعني عاليًا على كتفيه، ويركض بي على الشاطئ قبل أن يضعني على الرمل وينزع عني ثيابي. يقول لها إن علي تعلم السباحة منذ الصغر، لكنها تطلب منه أن يدعني وشأني. لم تكن ثيابي تتناسب مع الرمل ولا مع الشاطئ، كنت طفلًا أنيقا كما أراد لي جدي أن أكون.

في المرة الأخيرة التي زرنا فيها رجل البحر قالت له إنها ستتأخر في الحضور إليه، وربما ستتغيب لوقت طويل، لأن جدي لن يبتعد خلال المدة القادمة ولن يغادر إلا للإشراف على محاصيله الزراعية. طلب منها رجل البحر أن تترك أباها وتأتي لتعيش معه. نظرت حولها إلى الكوخ وقالت له إنني سأدخل إلى المدرسة هذا العام.

أمسكني رجل البحر من يدي، فبدت يده ضخمة جدًّا مقارنة بيدي الصغيرة، ثم قال لي إن شعري يشبه شعره. كان شعري أسودَ وكثيفًا مثل شعره، لكن شعره كان طويلًا يصل إلى أول رقبته.

حين عدنا إلى بيتنا في بعلبك، وجدنا جدي ينتظرنا، عاد باكرًا من سفره هذه المرة، كنت أغني أغنية البحر، ارتجفت

حين رأيته.

عادة هو لا يتحدث معي كثيرًا، لا يلاعبني، كان صامتًا أغلب الوقت.

اقترب مني وسألني: «أين كنت؟».

- كنت عند البحر.

-ومن رأيت؟

سألني بتجهم.

حكيت له عن رجل البحر، وعن يديه القويتين اللتين تحملانني، وعن شعره الأسود الذي يشبه شعري.

بدت عيناه كتلتين من جمر ملتهب، تحرك نحوها أمسكها من شعرها، هزها بعنف شديد وهو يقول لها:

"منذ خمسة أعوام ذهبتِ إليه، إلى من بصق في طعامنا، وكانت هذه النتيجة".

قال هذه العبارة وهو يشير بسبابته إلي، أحسست بالفزع، التصقت في الزاوية.

«سأقتلك»، قالها لها وهو يضع يديه حول عنقها، وهي ترفسه محاولة التملص منه وهي تصيح في وجهه:

«أنت دمرت حياتي.. دمرت حياتي».

كان يشدها محاولًا خنقها بيديه وهي تحاول الهرب.

من على الحائط خلفها تمامًا أخذت الفأس المعلقة للزينة، الفأس التي يفتخر جدي بأنه ورثها عن والده ويعلقها في صالونه كتحفة نادرة.

ضربة.. ضربتين.. ثلاثًا.. دماء تسيل على الأرض.

قتلته هي.

هكذا حدث القتل.

هكذا كان اليوم الأخير.

اليوم الأخير الذي رأيت فيه رجل البحر، ورأيت فيه أمي، وجدي.

ذهبت أمي إلى سجنها، وذهب جدي إلى مثواه الأخير، ولم أرَ رجل البحر مرة أخرى، حملني خالي معه إلى البرازيل ليبتر

كل خيوط ذاكرتي، ليشكلني على هواه. أنا الشاهد الوحيد على كل ما كان.. أنا طفل رجل البحر، ما زلت أذكر حتى الآن أغنية أمي، تلك الأغنية البحرية عن رجال البحر. لكن أنا الآن هنا، أمام بحر بعيد، غريب، ليس له صلة مع ذاكرة بحر آخر.

«هل آلمتك حكايتي أيتها الصبية؟».

لم ترد. انحنت لتلم الحصى الصغير عن الشاطئ، ابتسمت وهي تمد يدها اليمنى نحوه، بينما يدها اليسرى تقبض على الحصى، ثم قالت:

«دعنا نمضي من هنا، من أمام هذا البحر الغريب. سوف نمضي نحو شاطئ رملي، لكن دعني ألقِ قبضة الحصى من يدي قبل البوح بحكايتي، كي أحكي ماذا فعل بي البحر أيضا».

مكعبات السكر

كانت الوحيدة التي تجلس على مقعد منفرد في قاعة الاستقبال الأنيقة. في مواجهتها على الأريكة الجلدية السوداء جلست ثلاث فتيات شابات، كن منهمكات في الإجابة عن الأسئلة الموجودة في استمارة التوظيف. بدا عليهن الارتباك، وكن أحيانًا يقتربن من بعضهن ليتشاورن في سؤال ما على الورقة، كما لو أنهن في امتحان.

ظلت جالسة لدقيقتين قبل أن تتحرك نحو الشاب الذي يقف خلف الحاجز الخشبي اللامع الذي يفصله عن الأجساد العابرة المتجهة إلى الداخل أو الخارج، وعن الجالسة على مقاعد أيضًا. أحست بخدر لذيذ، بنوع من الاسترخاء في جو التكييف البارد، تمنت لو يدوم الوقت أكثر من دقائق معدودة قبل أن يكون عليها مغادرة المكان، إلى الشارع الساخن، والشمس اللاذعة.

اقتربت من الشاب وطلبت منه استمارة التوظيف. نظر

إليها بدهشة محاولًا مداراتها، لمعت عيناه اللوزيتان وهو يقول:

«لكن.. لا أظن أن الوظيفة تلائمك، المدير يبحث عن سكرتيرة بمواصفات معينة».

ابتسمت له ابتسامة جانبية، وهي تنظر إلى الأجساد الفتية التي تجلس على الأريكة السوداء، ثم أعادت نظراتها نحوه بثبات قائلة:

«صدقني، أنا بحاجة إلى هذا العمل أكثر من أي وقت مضى في حياتي».

توجهت بعبارتها إلى الشاب الواقف خلف الحاجز الخشبي وهي تقف قبالته تمامًا. لكن الشاب لم يرد، بل اكتفى بأن ابتسم لها وهو يشير نحو أحد المقاعد الشاغرة، ثم ناولها ورقة تبين أنها استمارة لطلب الوظيفة. أخذت الاستمارة وهي تشكره، لكنها لم تجلس، ظلت واقفة تكتب المعلومات المطلوبة عند الحاجز الخشبي. في تلك اللحظات خرجت امرأة شابة من مكتب المدير، كانت حاملًا في شهورها الأخيرة، دخلت وراء الحاجز الخشبي لتقف بجوار الشاب الذي انشغل في تلقي اتصال هاتفي. نظرت إليها المرأة الحامل بلا مبالاة، قلبت في

نظرتها تلك هيئتها العامة، تنورتها الرمادية القطنية التي تتناسب مع لون شعرها الرمادي والمنكوش قليلًا، قميصها الأبيض يبدو أنه غير معتنى بكيه بطريقة جيدة، ثم حذائها الباهت والقديم.

هي، لم تهتم بتلك النظرة المتفحصة التي أشعرتها بأنها كائن غير مرغوب به في هذه الشركة الفخمة، بل ابتسمت في وجه المرأة الشابة الحامل، التي استدعاها المدير من جديد.

بعد أن ملأت الاستمارة، ناولتها للشاب وهي تقول له:

«في يوم ما كنت في مثل سنك.. لا.. لا.. لم أكن في مثل سنك، كنت في مثل سن زميلتك الحامل، وكان هناك شاب يحبني في مثل سنك، ثم تزوجنا، وأنجبت عادل ونيرمين».

حركت يدها إلى الوراء، للدلالة على أن شيئًا ما انقضى، ثم عادت لتواصل كلامها قائلة:

«عادل في أميركا، ونيرمين مع زوجها في الخليج.. وأنا هنا».

ابتسم لها الشاب، وهو ينظر إلى طلب الوظيفة الخاص بها:

«سيدتي، لِمَ لَمْ تضعي رقمًا في خانة السنّ؟».

«أنت قلت رقمًا، وأنا لا أريد أن أُصنَّف بناء على رقم، أنت ترى أنني أجيد الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، واستخدام الكمبيوتر، وأرد على الرسائل، أليست هذه المزايا أكثر من الشروط التي وضعتموها في إعلان الوظيفة؟».

«نعم.. لكن.. مم.. لا أدري، زميلتي ستذهب في إجازة وضع، ونحتاج إلى من يحل محلها.. هذا صحيح.. لكن الأمر يعود للمدير في اختيار الموظفين».

«نعم.. نعم.. أعرف.. أنت لا علاقة لك بالأمر، لكنني أحتاج إلى الوظيفة أكثر من أي وقت، هل تصدقني؟».

«أصدقك سيدتي».

«كم سنّك؟».

«خمس وعشرون».

«لا بد أن حياتك مزدحمة بأصدقاء كثر، أليس كذلك؟».

«بلى، كيف عرفتِ؟».

«هكذا خمنت».

«ولا بد أن حبيبتك تنتظر أن تتقدم لخطبتها في أقرب وقت، وأنكما تمشيان على الكورنيش مرتين في الأسبوع، وتحلمان بإنجاب الأطفال.. هذه الصورة تبدو واضحة في عينيك، لكن صدقني بعد كل هذا ستكون وحيدًا، كما أنا الآن».

هزته كلماتها، أحس كما لو أنه تلقى لطمة مفاجئة على وجهه، أو أن صخرة كبيرة وقعت على ظهره، فأفقدته التوازن. لمعت عيناه اللوزيتان بحزن، وبدت له تلك المرأة مثل جنية عجوز تجبره على الإنصات إليها بقوة، عبر قول نبوءة حتمية، لا فرار منها.

أراد أن يقول لها، وماذا أفعل كي لا أكون وحيدًا! كي لا أكون مثلك. لكنه خجل من تلك العبارة. خجل من نفسه، لم يكن الخجل الذي يمنعه أكثر من الخوف. خشي أن تزيد في قول عبارات لا يود سماعها. اكتفى بأن هرب من نظراتها الثاقبة بأن حرك أصابعه بتوتر على الملفات الورقية المركونة على الطاولة أمامه، متظاهرًا بالبحث عن شيء ما، وحين لم يجده

حرك ماوس الكمبيوتر وراح ينقر على الحروف ويحدق إلى الشاشة.

في تلك اللحظة مر من أمامه الموظف الذي يصنع القهوة والشاي، وضع أمامه فنجانًا بلاستيكيًا فيه قهوة سوداء، وبجانبه طبق شفاف يضم بعض مكعبات من السكر، أشارت إلى الطبق وهي تقول له:

«هل تسمح لي بتناول واحدة، أحس بمرارة في حلقي؟»، أعطاها الشاب الطبق الشفاف وهو يجاهد ليحافظ على ابتسامته، تناولت قطعة من السكر، وضعتها فورًا في فمها ثم رفعت الطبق الشفاف قليلًا قرب عينيها قائلة:

«جميلة مكعبات السكر، أليس كذلك؟ محددة، وواضحة.. لا.. لا، ليست واضحة تمامًا، أحيانًا تكون واضحة».

كانت تمص مكعب السكر حين خرجت المرأة الحامل من غرفة المدير، وأشارت إلى الشاب بالدخول لأن المدير يستدعيه. ظل ينظر نحو السيدة ذات الشعر الرمادي وهو يهم بقول شيء ما، كما لو أنه يود أن يطلب منها ألا تغادر قبل خروجه. المرأة الحامل كررت التحديق بها في نظرة أقرب للنفور

هذه المرة، لأنها أطالت التوقف بنظراتها عند عروق قدميها التي تبرز من أعلى الحذاء، ثم أشاحت بوجهها بعيدًا كما لو أنها تهرب من تذكر حادث لا بد من وقوعه فيما بعد.

أما هي، فقد مرت بنظرها على الأجساد التي انتهت من كتابة طلب الوظيفة، الجميع يكتب بتعجل، وارتباك. أحست بأنهم جميعا يتشابهون مع مكعبات السكر الراقدة إلى جانب بعضها في الطبق الشفاف، لا يبان المكعب واضحًا بكل أبعاده لأن جزءًا منه يختفي خلف مكعب آخر. ابتسمت وهي تمسك بالقلم بين يديها وتضع بعض الخطوط على ظهر الورقة البيضاء التي عليها طلب الوظيفة.

النول يغزل مرتين

ليست حكاية النول هي التي دفعتها للبحث عن أصل القصة التي كانت أمها ترويها لها ولأخواتها كل يوم، بل عثورها بعد موت أمها وهن يجمعن حاجاتها على صفحات مهترئة خالية من العنوان ومن اسم المؤلف، تلك الصفحات التي أعادت قراءتها مرارًا لم تمكنها من معرفة حقيقة الحكاية وظلت نسرين مشغولة بالتفتيش عن كتاب اسمه «النول».

تسرب إليها إحساس خانق بالندم لأنها لم تسأل أمها أن تريها الكتاب الذي تقرأ منه كل يوم، لماذا ظل هذا الكتاب مجهولًا ولا يسمعن سوى باسمه من دون رؤيته؟

ولماذا حجبت الأم عنهن بقية الحقيقة مكتفيات بلذة الإصغاء فقط؟

لم ينفع نسرين البحث في المكتبات ودور النشر، ليس هناك كتاب يحمل هذا الاسم.. كانت تحس بالخجل عندما

يسألها صاحب مكتبة أو دار نشر إذا كان هذا الكتاب لكاتب أو لكاتبة، لمؤلف شاب أو لمؤلفة مبتدئة، وحين تمط شفتيها إشارة لعدم المعرفة يتشعب أكثر بالسؤال كان يقول لها: «وهل هذا الكتاب قصة أو رواية، كتاب في علم النفس أو الفلسفة أو بحث اجتماعي؟»، لكنها لا تعرف أي معلومة توضحها عن قصة الكتاب المجهول.

ما كان يحدث كل ليلة منذ كن خمس طفلات، أن والدتهن كانت تسهر معهن في غرفة الجلوس وتحدثهن عن النول وكيف يغزل نسجه ومع كل خيط تلتف خيوط حكاية، ويتشكل نسيجها حتى تكتمل. كانت ملامح أمها تمتلئ بالفرح وتلمع عيناها وهي تتأمل وجوه بناتها يسمعن حكايات النول ويطرحن الأسئلة، كانت نسرين في ذاك الوقت أصغرهن وأكثرهن صمتًا، لم تكن تسأل، تكتفي بالإصغاء فقط.

كانت مبهورة بالاستماع إلى حكايات الخيوط الرقيقة جدًّا كيف تُجمَّع وتُضَمُّ لتتولد منها تضفيرات معقدة ومبهجة في آنٍ واحدٍ.

حاولت نسرين سؤال أخواتها الأربع عن مصدر القصص

التي كانت أمهن تحكيها لهن، وما حقيقة كتاب «النول» ولماذا لم يظهر بعد وفاة الأم إذا كان موجودًا من الأصل؟ لكن أخواتها لم يظهرن أي تجاوب معها، أو انشغال بالبحث، أو رغبة بمعرفة المصدر السري لكتاب الأم. اكتفت أخواتها بهز رؤوسهن وانشغلت كل واحدة بعالمها الخاص.

رغم مرور الوقت، وتجاوز نسرين لفكرة الزمن الحاضر والانشغال ببحثها عن أصل الحكاية، فقد ظلت مهمومة بمعرفة الجانب الخفي الذي لا تعرفه، مما لم تُصرح به الأم.

لكن رحيل والدتها المفاجئ، فتح داخلها فجوة هائلة من الحزن، حزن تركها في حالة من الركود العدمي، ثم ازداد اتساع الفجوة مع فشلها في العثور على كتاب «النول» أو أي كتاب آخر يشبهه. إذ تطور بحثها إلى إمكانية تشابه الكتب منذ اعتادت التردد على المكتبات العامة والخاصة، ودور النشر، وأماكن الكتب المستعملة، ليقينها أن بين هذا الكم الهائل لا بد أن تحصل على ضالتها، لكن إحساسها بالفقد ظل يتسع مع كل كتاب تلامسه وتتعرف إلى سكانه، لم يكن بينهم ما يشبه حكايات والدتها أبدًا.

بعد انقضاء خمسة أعوام على رحيل الأم، حين كانت نسرين عائدة من عملها وعند مرورها من شارع شعبي، يكتظ بالمارة والباعة الجوالين وآخرين يفترشون الطرقات ليعرضوا بضاعتهم، توقفت أمام رجل عجوز، هرم، رثت لحاله من شدة هرمه، وتساءلت: كيف من الممكن أن ينزل كل يوم للشارع لينادي على بضاعته؟ توقفت لتشتري منه أي شيء، مثل الإبر، أو الخيطان، أو مصباح يدوي، أو إطار تضع فيه صورة لأحد تحبه.. كل هذه الأشياء من الممكن الاستفادة منها، لكن قبل أن تمسك بأي شيء وقعت عيناها على بوصلة صغيرة، غمرها فرح لرؤيتها، لطالما تخيلت أن البوصلة شيء ثمين جدًّا، لكنها لم تحصل عليها من قبل. أعطت النقود للبائع العجوز وسارت مبتعدة، وهي تضع نظارة شمس بنية على عينيها. كانت شمس الظهيرة لاسعة عند رقبتها وأعلى رأسها.

في البيت، بعد أن أخذت حمام ماء بارد، جلست لتمشط شعرها الطويل الأسود، في تلك اللحظة تذكرت البوصلة، أمسكت بحقيبة يدها وأخرجتها من الحقيبة، وضعتها أمام عينيها وصارت تستمتع برؤية إبرتها تهتز يمينًا وشمالًا قبل أن تستقر على خط واحد يحدد الاتجاه. جلست نسرين على

المقعد المجاور وأمسكت الفرشاة وصارت تمررها على شعرها، وفي لحظة ما قررت أن تضفر شعرها ضفائر كثيرة كما تفعل الفتيات الأفريقيات اللاتي تشاهدهن في الشارع، بدأت بتضفير خصلات الشعر، وبعد إتمامها تضفير عشر أو خمس عشرة ضفيرة، أحست بالتعب وأدركت أن هذه المهمة لا يمكن أن تؤدِّيها وحدها، وأنها تحتاج الذهاب إلى امرأة متخصصة بهذه التسريحة، حلت نسرين ضفائرها، وربطت شعرها، ودخلت لتنام.

في ذاك المساء رأت والدتها تجلس عند رأسها، على حافة السرير، تمسح شعرها وتحكي لها من جديد حكاية النول، ثم تترك لها ورقًا أبيض وقلمًا أزرق، قبل أن تمضي من جديد.

بيت الأرابيسك

كنت أنا.. وليس أي أحد آخر، بطلة فيلم "موعد على العشاء". ينبغي عليّ الآن التصديق بأنني لم أضع السم في الطبق، ولم أتناوله تلك الليلة؛ لكن رغم كل ما حدث، وما لم يعرف أحد بحدوثه، ظللت على يقين بأني أنام مفتوحة العينين؛ لأنني أتمدد في سرير قاطع طريق، ذي شارب رفيع، ووجه لزج، يعود كل ليلة وعلى أظافره القذرة آثار دماء طازجة..

كنت أقول في سري: «لا بأس.. هذا أيضا سيمر»، وأعود لتأمل تلك اللوحة التي تضم صورة فتاة صغيرة تسحبها يد رجل ضخم، وهي تسير خلفه وليس سوى الضباب يمتد بينها وبينه.

في أحلامي، غالبا ما كنت أركض لاهثة لمسافات طويلة ثم أسقط مغشيًا علي؛ وحين أصحو أجد كل الأشياء في أماكنها، المزهرية التي تواجه سريري وفيها عود من البامبو ملتو على نفسه، الشباك المغلق، والستارة الرمادية، سجادة الأرض

الفستقية بجانب السرير، ورائحة بهار الكاري تتسرب من بيت الجيران، الكومدينو الذي أضع عليه بعض أدوات زينتي في مكانه أيضًا، فرشاة شعري ملقاة بإهمال قرب علبة ظلال العين، السلحفاة العجوز تقضم ورقة خس في زاوية الغرفة، ثم الدولاب الكبير يجثم بثقل عند الحائط المائل.

تذكرت اليوم معطف الفرو الذي أمتلكه ولم ألبسه منذ أتيت إلى هنا، أي منذ عشرين عامًا. الطقس حار لا يمكن أن يمنح ترف الأناقة المبالغ بها، الأناقة التي لا أحبها- لذا ظل المعطف الذي اشترته لي أمي مع تلك القبعة البلهاء في آخر دولاب ملابسي، كيف لم أفكر بالتخلي عنهما طوال هذه السنين ؟ لمَ لمْ أتخلص منهما كي أفسح مجالًا لدخول شيء آخر إلى دولابي الخاص؟

خبيرة «الفينج شوي» تؤكد أن عليك ترك مساحات شاغرة في عالمك؛ لتتمكن الطاقة الإيجابية من اقتحامه. لا توجد أي مساحة في دولابي. سأعيد التفكير بالأمر بحيث ألقي كل ما لا أحتاج إليه خارجًا. لو فتحت النافذة سيبدو لي الهواء راكدًا في مكانه، ظلال أشعة الشمس تتسلل عبر شقوق الأرابيسك من النافذة المقنطرة من أعلى، لكن في حضور

الظلال سطوة قوية لا يمكن إبعادها. كل شبابيك البيت محاطة بالأرابيسك، لا أعرف لمَ! إذ لم أختر شيئًا هنا، ولم أقدم أي اقتراح.

أحب أن أفتح الشبابيك على مصراعيها، وسماع صوت أطفال الجيران الذين يلعبون في الحديقة التي تقع أسفل البيت. الصوت الآمر يجعلني أبدو مثل هرة تتعلق بثقوب الأرابيسك لتبصر الشارع، ثم تسقط على الأرض. هل مضى عشرون عامًا على تمثيل دور القطة، وعلى وجودي هنا في بيت الثقوب هذا؟! هل مضى عشرون عامًا على تلك الليلة حين علا صراخ أمي لأنني قلت لها: «لا أريد أن أسكن في بيت رجل يرتدي زيًا لونه زيتي، ويضع مسدسًا على خصره يسبب لي الرعب». كان هذا الرجل ابن عمي، أمي قريبته أيضًا، هددت بالغضب والرحيل إن لم أرتضِ الذهاب معه، لم يكن مثل أبي أبدًا، أنا كنت أشبه أبي جدا، وهي كانت ترانا ساذجين ؛ لأننا لا نشبهها ولا نشبه ابن عمي صاحب البذلة الزيتية. كنت في سذاجة القطط حين صدقتها بأنها ستغضب، وسترحل إن لم أرضَ به، تدرك أمي دائمًا كيف تنفذ ما تريد بأي الوسائل، كيف تدير الرؤوس، وتلعب بالأفكار. هكذا نقلت وصايتي منها إليه. وأنا لم أكن

مرة وحدي، في بيت أمتلك فيه حق فتح النوافذ.

قرر هو أن ينزع عنه بذلته ويهاجر إلى هنا، تخلى عن مسدسه، وتحول إلى قاطع طريق حديث، لا يمكن لأحد أن يكتشفه. توقفت عن الخوف منه منذ زمن طويل، ليس لأنه خلع زيه، وترك مسدسه، وارتدى زيا آخر، بل لأنني اكتشفت أنه لن يؤذيني؛ فقد كان مندمجًا في عالمه، إلى الحد الذي لا يسمح له سوى بحبس القطط.

الحرارة مرتفعة، الشمس ترسل مراسيلها عبر الثقوب المحفورة في الخشب، ألمس ثقوب الأرابيسك بأصابعي، سطحها ناعم، تجاويفها غائرة، حادة قليلًا، أشم رائحة غبار قديمة، جانب وجهي ملتصق بالجدار قرب النافذة، أصوات هدير السيارات ترتفع بصخب، أبصر سيارة نقل كبيرة تتكدس فيها أجساد عمال بناء، كوت الشمس جلودهم بلا رحمة. أنا هنا في الظل، أحرك مقبض النافذة، صوت صرير عتيق، حين أفتح النافذة تتسلل إلى البيت روائح كثيرة، بعضها شهي يدفعني للتفكير بالطهو، بدمج مكونات كثيرة، لإعداد وجبة عشاء مميزة، فقد تمكنت أخيرًا من فتح النافذة.

خمسة وجوه لعالم حياة

(١)

حين استيقظت من نومها كانت تحلم بشارع طويل، معلق بين جبلين، تظلله أشجار حور وكستناء، كانت تمشي وتمشي، والطريق يمتد..

في اليقظة أدركت كم هي بحاجة إلى المضي بعيدا.

(٢)

يوم أتمت الخمسين، أدركت حياة أنها عاشت سنواتها الماضية مع أحلام مؤجلة، موعودة، ترتق بها أيامها، أن ثمة غدًا آتٍ لا محالة، وعليها انتظاره. لكن قبل بلوغها الخمسين بأعوام تضاءلت هذه الفكرة داخلها، وحل مكانها هبوب قسري لأفكار أخرى، جعلتها تنتقل إلى مكان تثقل فيه الجاذبية بشكل مخيف، فتشد قدميها إلى الأرض، وتجعلها عاجزة عن الحركة.

في يوم ميلادها، فكرت بثقل العيش، وأنها مجبرة على الاستمرار في الحياة «حياة مضطرة للحياة»، غمرت وجهها

ابتسامة ساخرة وهي تردد اسمها.. حياة.. حياة.. اسم بلا مدلول. اليوم حين يأتي أصدقاؤها عند المساء لن تتمكن من القول لهم إنها تحس بوطئة العيش، وثقله على روحها، صديقها الوحيد سيواصل تقديم النصائح لها بالقيام بتدابير بسيطة للحصول على السعادة، صديقتاها ستهمسان لها بأن ما يحصل بسبب «سن اليأس»، ومن قبل كانتا تقولان إن كآبتها تحدث بسبب قرب موعد دورتها الشهرية، واكتمال القمر.

في الأعوام الماضية اعتادت أن ترسل نداءات لإنقاذها، تسميها «SOS».

تقول لمن يحبها، إنها وصلت للقاع، وتحتاج إلى من يسحبها إلى أعلى، لكنها فقدت القدرة على إطلاق النداءات. وحين كانوا يسألون عنها، ترد مع ابتسامة: «إن كل شيء على ما يرام». لكن اليوم ها هم قادمون بعد ساعات للاحتفال بيوم ميلادها.

في غرفتها كانت محاطة، بكتب كثيرة، أسطوانات موسيقية، وأفلام، تحدق حياة في السقف، وفي لون الجدران الزهري الفاتح، اختارته بهذه الدرجة ليبعث عندها الرغبة بالتفاؤل،

لكن وظيفته الأساسية صارت استقبال وجهها الشاخص نحوه، وعينيها المعلقتين في وسطه. نقلت بصرها نحو عناوين الكتب، كانت على نسق «دليلك إلى السعادة»، و«كل الأحلام ممكنة» و«قوة المخيلة»، وعناوين أخرى مؤثرة لأشخاص يشبهونها وصلوا إلى القاع، وعادوا منه، لكن هي لم تعد راغبة بالعودة. كانت تحس أنها تشبه أطفال الشوارع الذين ألفوا الشارع، وصار من الصعب عليهم العيش في بيت، وسط عائلة. هي ألفت قاع الألم، إن كانت موجودة في القاع أصلًا.

في البداية ظنت أن هذا سيمر، وأنها لن تلبث أن تنهض على قدميها، لكنها حين حاولت أحست بعجز شديد، كما لو أن قدميها مشلولتان.

(٣)

في أدراجها أوراق كثيرة، نتف حكايات لم تكتمل لأنها ظلت رهينة غدٍ لم يأتِ. كانت تواصل الكتابة من دون فعل اكتمال لما تكتبه، وهذا ما عذبها أكثر، وجود أشياء معلقة تحتاج إلى نهوض هي عاجزة عنه.

في دفترها الصغير الأخضر المزين برسومات لأوراق شجرة

توت، دونت أفكارها. فتحت الصفحة الأولى قرأت عنوان نص شرعت في كتابته قبل أشهر «هي والشمس، أنا والقمر». سمعت في المطبخ حركة تعرفها جيدًا، ويمكنها أن تخمن ماذا ستكون الحركة التالية، زوجها يصنع لنفسه الشاي، أحست بأنها جائعة بشدة، لكنها لم تجرؤ على طلب المساعدة منه. في تلك اللحظة أيقنت أنها غير قادرة على الاهتمام بنفسها، هي جائعة وليس لديها رغبة بمضغ الطعام، هناك صعوبة بالغة في قطع الخبز ومضغه. العالم لا يحتاج إلى أمثالها، لأنهم يزيدون عجزه، وهي شديدة الهشاشة مثل رماد سيجارة في يد مصارع عجوز. تحتاج الآن إلى يد قوية تمسكها من جناحيها، وتضعها تحت رذاذ الماء البارد لإيقاذها، ثم تجفف لها جسدها، تلبسها ثيابها، قبل أن تقدم لها وجبة دافئة.

(٤)

ما السعادة؟ هل من المهم أن تعثر على الإجابة الآن؟

وضعت الدفتر الأخضر جانبًا، فكرت أن هذا كله غير متاح، وعليها أن تنهض، ينبغي أن تنهض سريعًا، وأن تواصل العيش المطلوب منها، الدور الذي ينتظره الجميع. في المطبخ أكلت تفاحة، قضمتها بصعوبة، ثم اتصلت عبر الهاتف لتطلب

قالبًا للحلوى يكفي خمسة أشخاص.

أمام مرآة الحمام، نظرت إلى جسدها، تهدل صدرها قليلًا، لكنها نحفت كثيرًا، خسرت وزنًا خلال الأشهر الماضية، قالت للجميع إنها تتبع نظامًا غذائيًا صارمًا، كذبت في هذا أيضًا. تحت رذاذ الماء الدافئ أحست بأنها عالقة في الوسط، وأن ثمة يدًا تدفعها دفعًا للأمام، لكن جاذبية الأرض تشدها للقاع.

(٥)

لبست ثوبًا حريريًا زاهيًا، من اللون الفيروزي، جلست على مقعدها الصغير أمام المرآة ووضعت طبقة من الكريم، وبدأت ترسم خطوطًا على وجهها، طبقات لامعة على الوجه، خطوطًا على العينين والشفتين والجفنين. صورة المرأة المشرقة الموجودة في المرآة ليس لها علاقة بالمرأة الأخرى القابعة هناك في القاع.

أسندت مرفقيها إلى الحافة، نظرت إلى الساعة، سيصلون بعد ساعة ونصف،كانت تتمتم بصوت خافت: «كل شيء على ما يرام».

نيغاتيف مشوش لأيام الأسبوع

الأحد:

ممل يوم الأحد كعادته، رغم تخيلاتي أنه شاب بهي الطلعة يبتسم دائمًا، لكنه لا يبتسم لي أبدًا، يتركني ويذهب ليتلهى مع أخريات وأجلس وحدي أحدق إلى الفراغ.

في يوم الأحد لا أتلقى اتصالات هاتفية ولا أُجريها، أحس بأنني سأقتحم خلوة أناس هانئين فأفضل العزلة، سأطلب بيتزا للغداء وتنتهي مسألة إعداد الطعام، ويستمر الأحد مستلقيًا في كسله، بدلًا من الصوت الروتيني الذي يتلقى الطلبات جاءني صوت امرأة عجوز يرتجف ويعاتبني لأنني لم أحضر للإفطار الذي أعدته خصيصًا من أجلي، ما إن قلت آلو حتى بدا صوتها حزينًا، وهي تحكي عن استعداداتها منذ الصباح وشوقها للقائي، وكما قالت فقد مضى وقت طويل منذ الزيارة الأخيرة لها، صمتت المرأة العجوز، كان مطلوبًا مني الرد بدلًا من السكوت ماذا أقول لها عذرًا لست أنا؟ وضعت السماعة، هناك من يشاركني عزلة الأحد أيضًا، ليت بإمكاني تلبية تلك الدعوة.

الاثنين:

متزن جدًّا، بطيء وحالم. يقترن بذهني دائمًا بالامتحانات أو نتائجها. لا يمكن للاثنين أن يحمل عبثًا ما أو مداعبة، يرتدي بذلة رسمية سوداء ويتحرك بكلاسيكية مربكة ويجبرك على احترامه، ورغم محاولاتي شطب هذه الهلوسات من ذهني، والتكرار لنفسي أن الأيام كلها متشابهة، لكن الاثنين يؤكد لي دائمًا أحقيته في أموري الرسمية، أجدد جواز السفر يوم الاثنين، أستخرج رخصة القيادة، الوثائق الخاصة، وفي ختام يومه أتابع دروس اللغة في الجامعة، لا يمكن ليوم آخر أن يضاهيه في عمليته ونجاحه، ولا في شبهه بوجوه التماثيل المنحوتة منذ القدم.

الثلاثاء:

أحب مراوغته، وتخلصه من أثقال الاثنين ورتابته، في ثيابه العصرية والخفيفة يتحرك في حياتي مبديًا قدرة على المداعبة، يسمح لي بأن ألتقط أنفاسي من ملل الأحد، وبرودة الاثنين، يحرضني بعد نهاية العمل علي هروب صغير إلى قاعة السينما، أو إلى السير على الكورنيش، يعرف ما أحب، يختار لي فأسير برفقته باستسلام كلي، حين وقفت على الشاطئ كانت بائعة

الشاي تحوم حولي، تلح عليّ لشراء كوب من الشاي، تلك الطفلة السمراء الجميلة، بدت لي تصخب بحياة مختلفة، حياة تزدحم بقدرتها علي الوقوف ومواصلة اليوم بلا كلل، حين حاولت أن أعطيها النقود ورفضت أن آخذ منها كوب الشاي، أعادتها لي قائلة إنها لا تتسول.

الأربعاء:

يكرهه الجميع، أنا أحبه، يرون على وجهه بثور ودمامل وتشوهات لا تبرؤها أي لمسة سحر، لكنني أحنو عليه، وأضمه إلى صدري كقط أليف. الأربعاء الذي يتشاءمون من طلته لا يصيبني من شـــرره أي أذى، يعبر حياتي بخفة ملقيًا تحية صغيرة، أبادله مثلها، يشرب معي فنجانًا من القهوة ويمر بسلام، ليتركني في دوامة العمل.

الخميس:

حكيم متريث، شيخ جليل بلحية بيضاء، شيخ لا ديانة له، رحيم يتنقل من الهند إلي الصين، إلى أدغال أفريقيا، داعيًا للسلام، خميس المسارات الحالمة والنهايات الوشيكة، وانتظار لوعد ربما لا يأتي. دائمًا يدفعني الخميس للانتظار، انتظار ماذا؟ أسأل نفسي! أقول سأنتظر الأحد حتمًا ربما سيحمل لي فرحًا

ما، وأظل أنتظر.

الجمعة:

موقعه الذي يتوسط حكمة الخميس، وصخب السبت يجعله حائرًا لمن يرتكن أكثر، لا يستقر على أمر، كل الأعمال يجب أن تحسم فيه، وكل المشاريع تُحزَم في حقيبة وإلقاؤها إلى جعبه الأسبوع المقبل. الجمعة تابع وغير متبوع، لا ينحاز لأحد، لكنه لا يعلن عن هويته الخاصة، ينطوي على ذاته، ويستعد للرحيل بأقصى سرعة.

السبت:

إنه السبت.. يوم تليفزيوني بامتياز، للتخلص من تراكمات أسبوع مضغوط تلقي بأعبائك على السبت النشط، لا يمكن للسبت أن يشبه الأحد أبدًا، ولا أن يشبه غيره من الأيام، يقف قبل الحافة وحيدًا متفردًا بموقعه المميز، هو ليس نهاية ولا بداية، ولا وسط، هو كائن وحيد، لا يتشابه مع غيره من تلك الأيام الكسولة أو المملة.

السبت يتحرك بنشاط ويترك لك حرية الاختيار والفعل والتنقل بين شاشات القنوات الفضائية بلا ذنب، مؤكدًا أنه لا

يحمل ملل الأحد، عندما تجلس وحيدًا، حائرًا ماذا ستفعل، عندما لا يأتيك أي اتصال هاتفي، ولا تقوم أنت بأي فعل سوى التحرك من أريكة بجانب التليفزيون الذي غدا مملًا إلى أريكة على الشرفة تراقب منها شارعًا يضج بالحياة، أنت تراقبها فقط.. ليتني أستطيع أن ألبي دعوة تلك المرأة العجوز غدًا، إنه الأحد.



ورقة لعب

ألقت ورق اللعب على الطاولة أمامي، حيث أجلس في أحد المقاهي، ثم وقفت على مقربة خطوات من طاولتي الصغيرة التي أضع عليها بعض الصحف والمجلات. نظرتُ إلى الورق المتناثر على الطاولة، بنت، ولد، وأرقام من الأحمر والأسود. لم أفهم ماذا تريد مني حين رمت الورق على طاولتي وابتعدت. نظرت إليها، كان وجهها ملثمًا، لا تبدو منه إلا العينان. أشارت إلي بحركات من يدها ما يدل على أنها تريد قراءة الطالع.

قلتُ في سري عليّ التخلص منها بسرعة، لا أحب الدجل وادعاء النبوءات. رفعتُ إليها يدي مشيرة بالرفض، سارت نحوي خطوتين لتأخذ ورق اللعب، لكن قبل وصولها إلى طاولتي وحين نظرتُ إلى الورق المنثور إلى جانب الجرائد والمجلات رأيتُ الورق يتحرك، حدقتُ بدقة في البداية لأتأكد أن ما أشاهده حقيقة، كان الورق يتمايل على سطح الطاولة.

نظرت إليها بخوف، خيل إليّ أنها تكتم قهقهة عالية، لكنني تمالكت أعصابي وابتسمت قليلًا، من المؤكد أن وجهي كان شاحبًا، ولا جدوى من مواراة ملامح دهشتي. في تلك اللحظة فكرت أن هذه المرأة تتعامل مع أحد العفاريت وتجعله معاونًا لها في تحقيق مآربها، لكنني تذكرت صديقي الواقعي جدًّا الذي لا يمل من التأكيد أنه لا يوجد شيء اسمه عفاريت، وأنها من صنع خيال البشر، وحين كنت أسأله عن القصص الغريبة التي نسمعها عن هذا العالم، يؤكد لي أن كل هذه الأمور عبارة عن هلوسات سمعية وبصرية. إذن لو قلت له الآن ما حصل معي، لن يصدقني، ولن يقول لي ذلك، لكنه سيكتفي بتمتمة عبارات ما بين «ممكن.. معقول.. لا.. لا.. يمكن كنت تتخيلين». وفي حال إصراري على أن ما رأيته قد حدث فعلًا، أي أن هناك عرافة خبيثة ظهرت في المقهى الذي كنت أجلس فيه ، ورمت الأوراق على طاولتي، وأنا.. أنا بعيني رأيت أوراق اللعب تهتز وحدها.. لو قلت ذلك بإصرار، سيحزن في داخله كثيرًا، وسيظن أنه أصابني مرض نفسي من تلك الأمراض التي انتشرت في أيامنا هذه.

لم يعد بإمكاني أن أطلب منها المغادرة. بعبارة أدق، لم أجرؤ

على ذلك، وهي قد أدركت هذا. قالت إنها ستعود بعد دقائق، ابتعدت من أمام الطاولة، ورقها ما زال مكانه، لكنه ثابت لا يتحرك. أحسست بانقباض غريب، وخدر في جسدي، سرت نحو الحمام لأغسل وجهي، وأستعيد بعض تركيزي.

نظرت في مرآة الحمام، بدا وجهي شاحبًا، فتحت حنفية الماء وبدأتُ أغسل وجهي ويدي، فركت عيني أيضًا، أحسستُ بالراحة. أمامي تمامًا، رأيتُ في المرآة انعكاس وجه امرأة خرجت من باب الحمام المغلق، وقفت مكشوفة الوجه والرأس، ابتسمت لي، كان وجهها شديد البهتان والصفرة، وكانت عيناها خاليتين من الرموش والحواجب، شعرها خفيف جدًّا، أبيض مع خصلات قليلة بنية، أحسست بقشعريرة، هيئتها ذكرتني بالأيام الأخيرة لقريبتنا وداد حين كانت في المستشفى تتلقى العلاج الكيميائي لسرطان العظم، هذا الذبول أعرفه جيدًا، خصلات الشعر المتساقطة تاركة مسامات مفتوحة في الرأس، ثم ابتسامة ساخرة من الحياة المراوغة. سألتني إن كان معي منديل، ميزتُ لكنتها العراقية، سألتُها إن كانت من العراق، هزت رأسها إيجابًا، ناولتها المنديل بسرعة ودخلتُ إلى الحمام، عندما خرجت لم أجدها.

حين عدت إلى طاولتي لم أجد ورق اللعب على الطاولة. فقط الصحف والمجلات الخاصة بي، جلست أنتظر عودة العرافة لكن مضى أكثر من نصف ساعة ولم تأتِ. ناديتُ على الجارسون وسألته عن امرأة تضع غطاءً على وجهها، تطوفُ بين الطاولات وتقرأ الطالع بالورق، أكد لي أنه لم يدخل المقهى سيدة بالمواصفات التي ذكرتها.

غادرت المقهى وإحساس غريب بالتشوش، سرت في الشارع المزدحم وقررت الدخول إلى «المول» الكبير، أن أتوه في الزحام لساعة لساعتين، ربما أتمكن من نسيان ما حصل.

حين خرجت كان الوقت مساء، وما زلت أفكر.

هناك ثلاثة تفاسير.. لا.. لا.. ربما تكون أربعة أو أكثر.

ربما تكون هذه السيدة حقيقية، وورق اللعب اهتز أمامي على الطاولة فعلًا، لكنها غادرت المقهى لسبب أجهله. ربما ما حدث جزء من الحقيقة فقط، أي أن يكون هناك امرأة ظهرت بالفعل ورمت ورق اللعب أمامي وعرضت عليّ قراءة الطالع، لكن الورق لم يهتز أبدًا.

لكن لماذا لا تكون هذه المرأة ممن يمارسون ألعاب خفة اليد،

أو أن لها قدرات معينة تمكنها من تحريك الأشياء عن بعد، وهذا مثبت علميًا، وليس له علاقة بالجان والعفاريت.

ما أخشاه أن يكون صحيحًا ما سيفكر به صديقي الفيلسوف، أي أنني تخيلت كل ما حصل، وأنني مصابة بهلوسات بصرية.

هل هناك احتمالات أخرى؟

في أي الاحتمالات تكمن الحقيقة؟ ومن يملك يقينًا لأي شيء؟

أسير بسرعة، أندفع وسط الجموع التي تتحرك في الشارع، البرد شديد جدًّا، وأنا أحس بالتعب والحاجة إلى العودة إلى غرفتي. توقفت لأشتري الذرة المسلوقة، وجبة تذكرني بأيام الطفولة. البائع كان عراقيًا أيضًا، فهو شاب لا يتجاوز الثلاثين من عمره، أخذ مني المال وهو يتحدث مع شاب آخر عن اضطراره للسفر إلى بغداد بعد أسبوعين ثم يعود لتسوية أمور الإقامة. تذكرت «مهند»، صوت بائع الذرة ولهجته جعلت «مهند» يحضر في ذاكرتي سريعًا، ماذا يفعل الآن في إيطاليا، ربما يرسم وجوه العابرين في الشارع، مقابل بعض المال. بدأت قصتنا بسرعة وانتهت مع

قراره بالسفر. الحب دائمًا يهزم أمام المال. ماذا لو كان «مهند» هنا.. لو حكيت له عن المرأة العرافة.. أظن أنه سيصدقني..

يداي تمسكان الكتب والجرائد التي معي، وباليد الأخرى ألتهم عرنوس الذرة الساخن. أحاول إيصال شيء من سخونته إلى جسدي البارد.

دخلت غرفتي، أحسست ببعض الدفء.

سأنسى الحكاية كلها. حكاية المرأة المنتقبة التي ادعت أنها تريد قراءة طالعي، سأنسى أيضًا وجه المرأة المريضة التي رأيتها في الحمام. سأنسى تفاصيل هذا اليوم، سأنسى صوت بائع الذرة الذي يقف في البرد، سأنسى وجه «مهند» أيضًا.

لن أبوح بهذه التفاصيل لأي كائن. لن أخبر صديقي الفيلسوف بكل ما حصل، سأُسقط الصور من ذاكرتي كما أسقطتُ أشياء أخرى لم أجد لها تبريرًا منطقيًا.

حين وضعتُ ما أحمله من كتب وجرائد على الطاولة، سقطت على الأرض ورقة لعب.

مدينة الألعاب

راقبت لاعبة السيرك وهي تحاول أن تتوازن على الحبل الذي تسير عليه، تماهت مع ميلها للتوازن، وحرصها على عدم السقوط، تتحرك اللاعبة بخفة وحذر، تضع قدمها الصغيرة التي تنتعل فيها حذاء مطاطيًا على الحبل المتدلي بين طرفين.

ثمة أسد رابض على الأرض، يفتح فمه، ربما يكون جاهزًا لالتهام الفتاة، يسوطه مدربه بقوة تحزنها. تراقب الجميع حولها، الأطفال يدركون أنها لعبة، والكبار يستمتعون بالمشاهدة، لا توجد أي ملامح اضطراب على وجه أحد سواها. تنظر إلى أعلى، إلى الخيمة المخروطية، تتأكد أن كل ما يحصل يجري في مدينة الألعاب، وأن هذا كله مجرد عرض ليس إلا، عرض سينتهي بعد قليل.. تعود عيناها لمتابعة حركة الفتاة التي صارت معلقة في وسط الحبل، فوق رأس الأسد تمامًا. تندفع من فمها شهقة تدفع ابنها ليقول لها:

«ماما، أنت خائفة؟ لقد شاهدتُ هذا العرض قبل الآن في

رحلة المدرسة، لا تخافي، لن يحدث شيء».

تجنبت مرارًا الدخول لمدينة الألعاب، إنها مكان مفزع بالنسبة إليها، كل ما فيه يدفع للدوار، لأن الأشياء تكون في موضعها المناسب تمامًا، وفي العالم الخارجي الأشياء لا تكون على هذا الحال، العالم في الخارج مضطرب، ومدينة الألعاب تخلق اضطرابها الخاص الذي تراه منظمًا مقارنة مع اضطراب العالم، وهي لم تعد قادرة على احتمال هذا النظام والخروج من اضطرابها إلى نظام لا تعرفه. العالم في مدينة الألعاب يقوم على لعبة. لعبة متقنة ليس إلا. وهي لم تعرف متعة الاستمتاع باللعب.تذكر وهي طفلة، حين انكسر سنها الأمامي بعد ارتطام السيارة التي تقودها في لعبة السيارات بسيارة أخرى. نزفت الكثير من الدم، ولم تعد قادرة على الإستمتاع باللعب أبدًا.

عبرت الفتاة الحبل الرفيع، ونزلت منه بخفة، طوت جذعها لتحي الجمهور، ثم رفعت ساقيها في الهواء، لتتسلق حبلًا يتدلى من الأعلى. لم تكن قادرة على مواصلة المشهد أكثر، كانت الفتاة تؤدِّي كل الحركات التي لم تستطع هي يومًا القيام بها. تسمع صوتًا في عقلها يقول: «إنها لاعبة سيرك، لاعبة تعرف

كيف تمشي على الحبال الرفيعة». فتسمع صوتاً آخر يرد: «لا يهم، لا يهم، لكنها قادرة على القفز، على التسلق، ومراوغة الأسد والفرار منه دون أن يلتهمها».

يتجادل صوتان في داخلها، تحس أنها على وشك الصراخ، وهي تتخيل أنها لو كانت مكان اللاعبة، سيلتهمها الأسد لا محالة.

تترك ابنها في داخل الخيمة المخروطية، تخبره بأنها ستنتظره في الخارج. يهز الولد رأسه وهو يتابع حركات المهرج الذي يدهن أنفه بالأحمر، ويضع على رأسه قبعة الساحر، قبعة سوداء من قماش الشاموا، لا تتناسب مع وجهه المدهون بأصباغ كثيرة، يبدو أن تلك القبعة استعارها في اللحظات الأخيرة من رفيقه الساحر لأنه فقد قبعته الحمراء. أليست الأشياء مرتبة في مدينة الألعاب؟ كيف يفقد المهرج قبعته إذن؟ كيف يستعير قبعة الساحر الأنيقة التي يستخدمها لإخفاء الأرنب؟

في الخارج، أشعلت سيجارة، لم تكن تدخن في المعتاد، إلا حين تحس باضطراب كثيف. كانت على وشك الدخول في حالة

من الإغماء، تقاومها بالتفرج حولها، تأمل عوالم المدينة الصغيرة. التي تتوزع إلى غرف بلاستيكية، وخيم، وتنطوي على حيلها وحكاياتها وخفاياها. ستظل جالسة هنا، ريثما ينتهي ابنها من متابعة العرض، لن تبرح مكانها أبدًا، خشية دخولها في دوار جديد. على يمينها شاهدت أشكالًا مرعبة لأشباح مرسومة على قماش سميك، وستارة سوداء طولية خلف الرسومات الشبحية، وفوق الستارة عبارة «مدينة الأشباح»، وبجانب العبارة رسم لعلامة القرصان عظمتين متقاطعتين. على يسارها كانت مجموعة من الأرجوحات التي تعلو وتهبط في حركة مستمرة. قررت ألا تنظر إلى أي الاتجاهين، لكن رغمًا عنها كانت الاتجاهات تتدافع أمامها وتتقاطع عند نقطة واحدة. عند بوابة إحدى الخيم ارتفع صوت دوي نار، أو انفجار مفرقعة ارتفعت في الهواء، وانتشرت معها رائحة البارود، الناس حول الخيمة يصفقون كما لو أنهم في كرنفال.

قررت السير للأمام، بحثًا عن مقعد آخر ليس ببعيد، كي لا تشم رائحة البارود، ولا ترى مدخل مدينة الأشباح أو الأرجوحة التي تسبب لها دوارًا. سارت عدة خطوات بحثًا عن مقعد، كان رجل خمسينيًا أسمر يرتدي بنطلون جينز أسود

ومعطفًا رماديًا، يجلس على طرف مقعد مجاور لخيمة السيرك من الجانب الخلفي، لم تستأذنه لتجلس على طرف المقعد. التفت نحوها، ثم أبعد وجهه بسرعة، تلك الالتفاتة كانت كافية لتتذكره على الفور. لم يتذكرها الرجل أبدًا، لكنها هتفت به:

«ألا تذكرني؟».

ابتسم الرجل وهو يهز رأسه باستفهام. حاولت أن تذكره بنفسها، بأنها ابنة فلان صديقه، قالت له إنها تذكره من أيام الطفولة، حين كان يأتي إلى بيتهم، وكانت تجلس أحيانًا على ركبته، وكان يحضر لها شوكولا مارس، أخبرته بأن أباها اختفى بعد نهاية الحرب، في ظروف غامضة، ولم يُعرف عنه شيئًا، كانت تتحدث وتتحدث، عن تفاصيل مضت من أيام الطفولة. لكن الرجل استمع باهتمام من دون أن يقول عبارة تفيد بأنه تذكر شيئًا.

عادت لتقول له مؤكدة: «أنت تمثل لي شيئًا مهمًا، ظل أبي بعد سفرك إلى لندن يحكي لنا عنك، عن حنينك لوطنك، عن القصائد التي تكتبها، كان يقرأ لنا أبياتًا من قصائدك».

وكأنما لمعت في عيني الرجل ذكرى شحيحة، أضاءت وجهه.

في تلك اللحظة، خرج ابنها من خيمة السيرك، اندفع نحوها ويبدو عليه بعض الغضب: «ماما أين أنت، بحثت عنك»، نظر إلى الرجل الذي يجلس على طرف المقعد الآخر، لم يعره اهتمامًا، شدها من يدها وهو يقف بجوارها قائلًا:

«ماما، تعالي، أريد أن أدخل إلى مدينة الأشباح».

ظل الرجل صامتًا، لم يقل أي كلمة. ربما تابع خطواتها وهي تمضي مبتعدة.

كانت تفكر، ماذا يفعل هذا الشاعر في مدينة الألعاب، هل كان ينتظر أحدًا ما؟ لم يجلس هنا، لمَ لمْ يتكلم أبدًا، لمَ لمْ يتذكرها، لم يتذكر صداقته لأبيها، وأيامهما التي مضت بين حرب وحرب؟

سار الولد خطوتين، وهي خلفه، يشدها من يدها وهي تسير ببطء. التفتت إلى الوراء، كان المقعد شاغرًا، والرجل الخمسيني ذو المعطف الرمادي يمضي في اتجاه آخر، ربما نحو خيمة السيرك.

في مدينة الألعاب، تعود الأشياء إلى أماكنها المناسبة، ويبدو الأشخاص على حقيقتهم أكثر مما هم في الحياة.

الضوء

لم يعد قادرًا على المراوغة كثيرًا، اشتاق لحريته. يحن لها حنينًا جذريًا، يشبه ارتباطه بالموسيقى. ترنيمات جارته العجوز العمياء، وهي تغني أمام باب بيتها تذكره بفنانين المترو والساحات العامة في المدن التي زارها.

تتسلى جارته بالغناء، تعرف أن صوتها شجي، ويدفع للبكاء، كانت تقطر أحزان بصيرتها في أغنيات عن القدر الضال، متناسية أنها كفيفة منذ الأزل، وأنها لم تعرف أي لون أو شكل. يجلس بجانبها، يصف لها العالم، ثم يخبرها عن شوقه للحرية، وأنها حرة أكثر منه لتجردها من المقارنة بين النور والظلمة.

لم يكن الميل للعتمة لديه مجرد رغبة عابرة، يستجيب لها عبر الجلوس في ضوءٍ شحيحٍ، فيما الستائر تحجب أي نور يمكن أن يتسلل من الخارج. كان المشي في الزقاق المعتم يماثل لديه متعة الاستسلام للعدم، واليقين أن أيامه تشبه الخطوات الضيقة في الزقاق، نهايتها وشيكة وستكون في مواجهة حائط

أبيض مرتفع وسميك، وقدري أيضًا.. حاول أن يفكك معادلة الميل للعتمة بمقاومتها، يترك النور مضاء، والشباك مفتوحًا وهو نائم، كي يصله ضوء وصخب الشارع، وفي وحدته تلك يحس أن الضوء المنبعث من اللمبة المعلقة في السقف يشبه أفاعي تمتد لتسحبه نحوها. يخاف ويغمض عينيه، هاربًا إلى عتمته الخاصة، التي لن يفهمها أحد.

في الليل، يركل بقدمه زجاجة بيرة؛ فتصطدم بالبرميل الذي تتدلى منه القمامة، يحدق في الأرضية القذرة، ومجموعة من الأولاد المشردين يجلسون على الرصيف في آخر الليل، حين يجلس بقربهم، يظنونه مثلهم أيضًا، لا يعرفون حاجته للبحث عن العتمة. حين يحكي لهم أن لديه سريرًا، وأنه هارب من غرفة فيها ضوء كثيف، وشباك عريض، لا يصدقونه.. يتبادلون سخرية يعرفونها بينهم ويتركونه جالسًا على الأرض ويمضون بعيدًا.

يوم صارحته «سهى» بأنها تحبه، رأى في عينيها ذلك الوميض الذي يخيفه. ويدفعه للهروب. لمعت عيناها السوداوان بسطوع، وبدا له اللمعان مثل خيوط تنطلق من عينيها لتكبله، فسارع بالفرار، تركها وحيدة. لم تفهم «سهى» لماذا فعل هذا؟

ولم تعرف أنه يحبها، لكنه عاجز عن الاستسلام للوميض. ظلت كلما التقت به صدفة في الشارع، أو عند مدخل العمارة، تحني رأسها ولا تنظر نحوه، وكما لو أنها أدركت أنه سيهرب من بريق عينيها. وكلما أوغلت هي في ابتعادها وعتمتها ازداد انجذابًا لها. أحبها لأنها ترتدي دائمًا اللون الأسود، كانت الوحيدة من بنات الجيران التي تمتلك ضفيرة سوداء طويلة، تنسدل حتى خصرها فوق سترة سوداء، أو لتلامس بنطالًا أسود.

هل أدمن السواد والعتمة، منذ أسدلوا عيني والدته، ولبسوا عليها ثياب الحداد.. كان في الخامسة من عمره حينها، وكلما أراد أن ينام في غرفة مضاءة قال له جده – وهو يطفئ الضوء: «إن الخوف ضعف إيمان»، وهو في قلبه ايمان كبير، بأن أمه الآن سعيدة هناك مع الملائكة التي ترافقها لأن روحها كانت طيبة جدًّا، ونقية، لا يذكر من أمه سوى قامتها الطويلة الممتلئة، وصدرها الوافر بالحنان. لكنها مضت قبل أن يعرفها أكثر.

في عامه الجامعي الثاني، قرأ له صديقه أبيات شعر من قصيدة لم يكن يعرفها. كانت الأبيات تقول:

تَثَاءَبَ الْمَسَاءُ، وَالغُيُومُ مَا تَزَال
تَسِحُّ مَا تَسِحّ من دُمُوعِهَا الثِّقَالْ
كَأَنَّ طِفَلاً بَاتَ يَهْذِي قَبْلَ أنْ يَنَام
بِأنَّ أمَّهُ – التي أَفَاقَ مُنْذُ عَامْ
فَلَمْ يَجِدْهَا، ثُمَّ حِينَ لجَّ في السُّؤَال
قَالوا لَهُ: «بَعْدَ غَدٍ تَعُودْ».

بكى يومها. مضت أعوام ولم يعد يذرف الدموع. لكن «أنشودة المطر» أبكته فيما مضى، يوم صار يمشي في الطرقات وهو يردد: «أتعلمين أي حزن يبعث المطر». الفتيات ظنت أنه يعاكسهن، أو أنه مخبول، يمشي على الأرصفة يكلم نفسه. لكنه بعد وقت أقلع عن هذا الفعل، وظل على ارتباطه بالعتمة، والميل إلى نبذ الضوء، وتأمل الظلام. طرده أستاذ الفلسفة من المحاضرة حين قال له إن الظلام هو نور أيضا، لكنه أكثر سطوعًا فلا يمكننا الإبصار عبره. بعد قوله هذه العبارة، أحس بأنه اكتشف نظريته الخاصة، صار يمضي في الظلام ممعنًا في تأمل ضوئه، ليؤكد لذاته أن الظلام هو النور، والحياة هي العدم، وأن الفقد توحد مع المفقود ليس إلا.

«كل الأشياء متساوية»، كان يقولها في صوت مرتفع وفي

كل الأماكن. حمل في البداية لقب «الفيلسوف الصغير»، ثم لقبوه بـ«المجنون»، لم يكن يكترث بكل الألقاب، كل ما أراده في الحياة، أن يتركوه ينعم في عتمته، لكن هذا لم يحدث، فقد ظلوا يجبرونه على مواجهة الضوء البشع، الذي يفرض حضوره الثقيل عليه، ويدفع عقله للتوتر والغضب. العتمة سكون، بينما النور هو الضجيج الموجع بلا شاهد على مدى أذاه.. أجبروه على الامتثال للضوء؛ الذي أفقده عقله تمامًا. نزعوا المجذوب من عتمته، ليصير مثل دودة قز تتقلب على الأرض إلى أن تموت من الجفاف؛ وها هو الآن يعيش جفافه، يتقلب على الأرض تحت ضوء الشمس الساطع، منتظرًا نهايته.

تلك السفينة

لا تكمن المسألة في الرجوع للوراء، أو النظر للخلف، وأنت تجد أن الشهور التي مرت، وكنتَ جزءًا أساسيًا من مرورها عبرت هناك أيضًا، تمامًا كما مرت هنا؛ هذه حسبة بديهية ساذجة عن مرور الأيام، لا يمكنك التوقف عندها، لكنك تجد الأشياء عالقة في مكانها، بينما أنت عالق بأفكارك عند حدود الغيم، فلا أنت تقف على أرض صلبة، ولا أنت في السحاب.

الآخرون يستقبلونك كما لو أن الوقت لم يمر، وكأنك لم تُفارقهم، يتابعون سرد الحكايات التي تعرفها. تتأمل التحولات الطفيفة التي حصلت، وتسأل ذاتك إن كان ثمة تحول ما على وجهك، أو في ملامحك، انتبهوا له هم أيضًا، وصمتوا مخافة الكشف. تود سؤالهم عن ملامحك، عن لون عينيك، ودفء قلبك، ترغب في تقصي حقيقة الولع الذي يميزك هل توهج أكثر أم خبا.

لا بأس، تهمسُ في سرك أن عليك التروي كثيرًا قبل أن

تمضي للبعيد، ومن شرفتك ترى أغصان شجرة التوت المعزولة، ومعها حكايات ترتفع مع كل غصن لتطال الشرفة وتتسلل بلا وجل إلى قلب البيوت، وعبر الشارع تعلو أغنية لفيروز بشجن عتيق تعرفه جيدًا. أنت لا تنظر للوراء فقد اعتدت ألا تثق بالحنين، لكن ليس هذا السبب في عدم النظر للوراء، بل لأنك تعرف أن الأرض التي تركتها؛ لم تتركها إلا بعد أن صارت يبابًا، واستحال رجوعك إليها، وها أنت الآن تنظر نحوها بعطف، عطف ليس إلا، ربما يتشارك مع قليلٍ من الشفقة، والحزن على ذاتك المشطورة بين هنا وهناك، وأنت لست هنا بالكامل، ولست هناك تمامًا.

أوه.. من هذه المعادلة المكرورة التي تشبه النقاش الذي تحاور فيه ذاتك عن الزمن والحب، ومن منهما الذي يُنهي هوية الآخر، ويجرده من أسلحته، تحاور ذاتك عن الاعتياد، عن سيرورة اليومي الذي يخنق الجمال في حال سهونا عنه. تؤكد لداخلك مرارًا أن الغاية من وجودك هو الحفاظ على الجمال، سيضحك كل من عرفك لو قلتها بهذه التلقائية، هل الغاية من وجودك فعلًا إبقاء كل شعاع عند ذروة نوره؟ أليس هذا محض وهم جميل تُصبر به نفسك؟

ثم تعود لذاكرتك، لتنبهها أن هدفك الأول هو الحفاظ على زهوك الداخلي من أي انزلاق أعمى، أنت سهران لترعى هذه الحقيقة الجليلة، مع محاولة سيزيفية بالمشي على شاطئ البحر، والادعاء أنك تمشي بلا هدف، وأن قصيدة محمود درويش: «لماذا نحاول هذا السفر؟» كُتبت من أجلك، أو عنك.. ثم تحكي عن إعجابك بالأبطال العدميين الذين تركوا كل شيء ومضوا، وعن أيام كنت تنصت فيها للقصائد بقلب مخضر، لم يجفل بعد.

ما الذي تغير عبر هذه الأعوام الطويلة، كي تطرح كل هذه الأسئلة التي التهمتها الأسماك قبل قرن ونصف القرن، من مرورك هنا! مضى كل شيء وظل بداخلك توق للصلاة في العراء، مع راهب عجوز.

تلمح سفينة بعيدة، تُلوح لها بيدك لتأخذك معها. من هو هذا الربان الغريب الذي ينشد أنشودة تعرفها!

أنشودة تتشابه كثيرًا مع أغنيتك، وألحانك القديمة. لماذا لا تدعو هذا الغريب كي يشرب من كأسك المنسية عند الحافة، تركتَ فيها بعضًا من نبيذك، وبجانبها في طبق خزفيٍ أبيض بضع

حبات زيتون، وعنقود عنب. ذاك الربان لم يقرأ حكايتك عن عناقيد العنب الأحمر، ولا عرف أي سماءٍ سوداء كانت تظللك يومها. كأنك رأيته يقترب، وكأنك عرفت مقدار التشابه بين حيرتك وحيرته لما أبصرت وحدتك في عينيه، كان يُبحر في سفينته، وسط الموج العالي، وحيدًا مثلك، لكنه لم يرك، رأى ظلك من بعيد، ولم يقو على النداء، فمن ينادي على ظل! وأنت كان صوتك خافتًا، فلم تصرخ لتطلب منه التوقف ليأخذك معه. ظللت تنتظر، إلى متى ستظل جالسًا هنا تردد مواويلك ثم تمشي في الطريق عينه الذي سرت فيه مرارًا، سيداهمك الغروب سريعًا، وحين تبصر الشفق الناري الواهن ستعرف أن الوقت تأخر، وأن عليك المضي إلى دارك، وحيدًا، أعزل، إلا من أغنياتك، هناك تجد شجرة التوت المنسية، عارية الأغصان، تنتظر عودتك.

سفر

عبرت ذاك الخط المتأرجح بين اليقظة والسبات، فتحت عيني ببطء ليطالعني ضوء نهار صاخب والشمس لا تكتفي أبداً من تسلق البشر.. دخلت إلى الغرفة.

"ماري".. استيقظي، حبيبتي.. كنت بكامل وعيي.. أفتح عيوني بشدة ومع هذا أمي لم تربي، بل هزت جسدي كي أستيقظ.. حاولت أن أقول شيئا لكن جسدي لم يطاوعني.. ولا أدرى سببا..

"ماري" – ما بك حبيبتي .. لايزال صوت أمي يرتفع، ويصدح في محاولة لإيقاظي، وأنا أجاهد كي أنبئها بيقظتي – لكن لا أعرف – أشعر بأني حرة.. ولكني مكبلة.

– "فؤاد" تعال وانظر إلى ماري.

صوت أمي استحال صراخاً. وجهها الأبيض صار ممتقعاً بارداً كالثلج. يهرع والدي بشعره المنكوش وبيجامته الرمادية الشاحبة، دون أن يغسل وجهه.

- ما بك يا جيزيل لماذا تصرخين؟!

أبي يعبر بخطواته نحوي، ويحدث أمي محاولا نشر الهدوء، أنظر إلى الغرفة والدي يفحص جسدي، لا أعرف لأول مرة ألاحظ أني أرى جسدي، صحيح أنا أرى الغرفة وجسدي والسرير وأمي وأبي.. كما لو كنت أشاهد فيلما.. لكن كيف.. أنا هنا وأرى جسدي هناك؟ من أنا؟ أين أنا؟

أمي بدأت تنتحب، وجه أبي بدأ يغدو شاحبا، وهو يمد يدي ليقيس نبضي يضع رأسه على صدري ليصغى إلى دقات قلبي.. صحيح أنا لاأسمع دقات لقلبي ـ غريب..

– دكتور.. ينطق أبي بصعوبة.. أحببت أن أطمئنه علي.. لكنني لم أستطع – هناك شيء يمنعني من إيصال كلماتي لنطقها.. لكن مع هذا لا أشعر بالانزعاج.. أمي بدأت بالنواح ولم أفهم لماذا؟ ثم انهالت على جسدي بالقبل وبدأت تضمني وتصرخ بي أن أعود.. لا أفهم.. كيف أشرح لها أني كا زلت هنا ؟! صراخ أمي يعلو.. وانفعالاتها تتزايد وأبي يتحرك بسرعة للخارج مع أنني أحب أمي إلا أني غير مهتمة بصراخها.. لأول مرة لا أتعاطف مع دموعها ـ أوحزنها أحسست أني هادئة بلا

انفعال، لا أعرف كم مر من الوقت.. عاد أبي ومعه رجل غريب.. وضع سماعة على صدري، قاس نبضي من يدي.. ثم نظر إلى والدي بأسف: متأسف العوض بسلامتكم.

العوض بسلامتكم، كدت أضحك، لكنني لم أفعل .. العوض بسلامتكم تستعمل للحديث عن ميت، ميت من ميت؟ هنا في هذا البيت ميت؟ لا أرى أي أموات، في هذا البيت نعيش ثلاثتنا أنا وأمي وأبي، وأنا أرى ثلاثتنا أمامي أمي وأبي وأنا.. لكن مهلاً.. أرى ثلاثتنا.. ثلاثتنا كيف أستطيع أن أرى نفسي لا أفهم..

- "فؤاد" البنت ماتت.. يا "فؤاد".

أمي تصرخ وتولول، انهارت على السرير وأبي يبعدها ويهدئها.. وأنا لا أستطيع التدخل لتهدئتها.. مع أنني أتمنى لكن لم يمض وقت طويل حتى عمت المكان فوضى عارمة، غرفتي الهادئة، الوادعة أصبحت مغزوة، كالسوق من القادمين والذاهبين .. جيران أقارب لا أفهم لمَ كل هذا الكم من الناس يتحلقون حول جسدي النائم ويشاركون أمي بكاءها ويهدئونها.. لا أفهم.. عندما أستيقظ من سباتي سأنهر أمي

وأطرد هؤلاء إنهم يوسخون غرفتي وذاك الصبي هناك ينزع اللوحة التي على الحائط.. آه وتلك السيدة الضخمة . جارتنا . داست فوق شريط CD يأتي بالموسيقى.. آه كم جميلة هي معزوفة **Deliveranee** .

غريب أحاول أن أصرخ بأمي أن تطرد هؤلاء المخربين من غرفتي.. إنهم يعيثون بها فساداً. أخيراً يشفق أبي عليّ.. ويقرر نقلي إلى غرفة أخرى ولاتزال نفس الوجوه ونفس الدموع والأصوات تتكرر ومع هذا أنا لا أشعر بشيء.. جارتي "إيلين" تتحدث وهي ترسم شارة الصليب على صدرها..

يا أبونا.. كيف راحت.. كأنها طير صغير عصفور.. "كم عمرها؟! أمي "تلعلع" من بعيد..

الآن بدأت أستوعب هذه التي رحلت لربما تكون أنا.. لكن كيف رحلت.. ثم أنا حسبما فهمت – رحلت يعني مت، كيف أكون ميتة وأنا أفكر.. المعادلة المشهورة تقول: "أنا أفكر إذن أنا موجود، وابن سينا كما أعرف يقول إن الإنسان يدرك وجوده قبل أي شيء.. يعني الإنسان الحي.. وأنا أدرك وأفكر وأحلل.. وهؤلاء الأغبياء يقولون مت.. كيف مت؟ وأنا

لا أزال هنا ـ أحاول الصراخ فيهم لا جدوى، أحاول الاقتراب منهم، لكن أبداً كما لو أني ملتصقة بمكاني، أرى لكن لا أستطيع التفاعل، ربما مازلت نائمة.. ربما أحاول الصراخ.. التحرك.. لكن لا جدوى ومع هذا لا أشعر بالملل.

غريب.. أنا لا أحس بشيء.. لا أحس بأي شيء البتة.. أتراني لا أزال نائمة.. ربما.. ربما.

الكنار مازال يغرد

استيقظت عقب أذان الفجر لتكمل أعمالها، العيد سيحل بعد يومين عليها أن تنظف جميع حجرات الفيلا وأن تجمع الستائر لتغسلها وتعلقها من جديد أيضاً، يجب أن تشارك سيدتها في صناعة الكعك. ارتفع صوت فوزية الخادمة الكبيرة، تنادي عليها بكلماتها المعتادة:

– موحا، يا كسولة، أما زلت نائمة وأنا بدأت العمل، قومي نظفي الجنينة، ورشي الماء على الزرع، واجمعي الأوراق الذابلة.

الطقس بارد في الخارج والهواء محمل بالمطر والرياح، عندما قامت موحا إلى الحمام بشعرها المنكوش وثيابها القطنية الخفيفة، لم تغسل وجهها بل أخذت "الدلو" المخصص للجنينة فملأته بالماء، وحملته مع المقشة ومقص العشب.

كانت تسير ببطء لا يتلاءم مع سنواتها الثلاثة عشرة تجر معها آلام الروماتيزم الذي بدأ ينخر عظامها باكراً، هناك وجع

آخر في أسفل بطنها جعلها تتلوى وتضغط أحشاءها إلى الداخل، لكنها لا تجرؤ على الكلام أبداً. عليها أن تنتهي من تنظيف الجنينة كي تغسل سيارة ابن سيدها لقد أوصاها بغسلها البارحة حينما رجع متأخراً ليلة أمس.

كانت تغسل الصحون، وتضع الصابون على أرضية المطبخ كي تشطفه، فتح الباب بمفتاحه ودخل، جميع أفراد العائلة ناموا، السيدة الكبيرة تدخل إلى سريرها في العاشرة مساء، وقد سمعت "موحا" أنها تفعل ذلك كي تحافظ على نضارة وجهها. أما أختاها "سارة وسلمى" فقد استسلمتا للنوم باكراً بعد أن طافتا طيلة النهار على المحلات لاستكمال الحاجات الخاصة بزفاف سارة.

تقدم ابن سيدها إلى المطبخ، داس بقدميه الموحلتين على البلاط الغارق بالماء والصابون فظهرت بقعة بنية اللون من الوحل، فتح الثلاجة أخذ زجاجة من البيرة وهو ينظر إلى موحا ويقول:

– ألم تنتهي من عملك بعد يا عرجاء. أجابته بخوف.

– لا يا سيدي بعد قليل سأنتهي.

اقترب منها، أمسكها من ذراعها، ويده الأخرى تقرص صدرها، ثم راح يتفوه بكلماته التي حفظتها موحا دون أن تدرك مغزاها:

– انتهي من عملك يا وسخة، قذرة كوالدتك التي تركتك على باب الكنيسة.

رددت موحا كلماتها جملتها الوحيدة.

– حاضر يا سيدي أمرك.

– هيا انتهي، عليك أن تغسلي سيارتي صباحاً، يجب أن تكون نظيفة قبل طلوع الصبح.

– تمتمت.

– أمرك.

برد الليل كان ينخر عظم ساقيها، وقدماها سابحتان في الماء البارد الذي يملأ الأرضية انتهت من غسل الصحون، ثم بدأت تجفف الأرضية. حينما أتمت عملها، سارت إلى غرفة الخدم التي تقطنها مع "فوزية" "وهند" عبرت الممر المعتم لتصل إلى الحجرة الكئيبة استوقفتها يد قاسية، أمسك بها من شعرها

وهو يقول:

- انتهيت إذن، هيا إلى حجرتي لتمسحي أحذيتي.

سارت وراءه خائفة بلا أية كلمة سوى "أمرك سيدي" حينما دخلا، أغلق الباب وراءه ودفعها إلى السرير أبعد سروالها القطني المتسخ، نزع رداءها الداخلي ثم أولج عضوه فيها بسرعة ولم تستطع الصراخ، لأنها خافت أن يضربها وأن يستيقظ كل من في البيت. قام عنها وهو يصيح - هيا اخرجي من هنا.

ذهبت إلى حجره الخدم، ألقت جسدها على الفراش الصغير، لم تذهب إلى الحمام للاغتسال ولم تبصر نقط الدم الحمراء التي صبغت سروالها الداخلي.

صباحاً وهي تنظف الجنينة، شلتها الآلام الحادة أسفل بطنها، ودفعها السائل الساخن لترك الدلو والمكنسة والذهاب إلى الحمام لإزالته، بقع من الدماء كانت تلوث ملابسها لم تدر سببها، هل الجرح الذي سببه لها سيدها البارحة؟

استمرت الدماء لعدة أيام وموحا تفكر أن تحكي للخادمة الكبيرة لكنها خشيت أن يضربها ابن سيدها، إن تفوهت

بالأمر كانت تسرق أوراق الجرائد التي يرميها سيدها والمناديل الورقية الموضوعة في الصالون، كي تحشي بها سروالها الداخلي لمنع تسلل الدماء.

موحا لا تعرف من هو أبوها؟، ومن هي وأمها، كل ما تذكره عن طفولتها، أنها كانت عند امرأة من نساء القرية، سمعت أنها أخذتها من خوري الكنيسة لتربيها مع أولادها، لكن بعد أن مات زوجها صارت "موحا" عبئاً عليها، فنصحها الجيران أن تضعها عند إحدى العائلات الثرية في المدينة كي تتخلص من إعالتها، إذ لم تكن تلك المرأة تملك النقود لتربي أولادها، فمن أين لها تربية فتاة وجدت على باب الكنيسة، تذكر "موحا" أنها كانت في السادسة أو السابعة عندما جاءت أول مرة إلى بيت "سيدها"، وأن تلك المرأة التي ربتها حتى هذا العمر احتضنتها للمرة الأخيرة وهي تبكي وتقول: "ما كنت لأتركك"، يومها سحبتها الخادمة فوزية من يدها إلى داخل غرفة الخدم، وألقت في يد المرأة بعض الورقات المالية.

منذ ذاك اليوم صارت موحا متخصصة لخدمة بنات سيدها، وفي حال غيابهن تنزل إلى المطبخ لتتعلم سائر الأعمال المنزلية.

جميع من في المنزل كان يعامل موحا على أنها حشرة بلا فائدة، ما عدا سيدتها "سلمى" لم تكن لتكبرها إلا بسنتين، لذا كانت تعطف عليها في بداية قدومها إلى المنزل، كانت تحدثها عن مدرستها والأساتذة والمعلمات، ومرة فكرت في تعليمها القراءة واستطاعت موحا أن تميز الأحرف وتكتب اسمها، لكن حينما لاحظت الأخت الكبرى تعلق سلمى بموحا، مُنعت موحا من التخصص في خدمة الفتاتين، وانتقل عملها إلى المطبخ لكنها لا تدري لماذا ابن سيدها دائماً ويصر أن يكيل لها السباب والشتائم، منذ قدومها في اليوم الأول إلى البيت، تذكر يومها أنها رأته يأخذ النقود من حقيبة أمة، وحين اتهمت الأم الخادمة الصغيرة، صرخت موحا بأنها شاهدت ذاك الشاب يفتح الحقيبة ويأخذ النقود، ولم تكن لتعرف أنه الابن الأكبر.

موحا تدرك أنها تعيش لتخدم كل من في البيت، وكل ما تتمناه أن يمر نهارها من دون أن يضربها أحد، أو تعاقب وتنام في القبو المعتم، لذا تحولت مع الأيام إلى كائن صامت، لا يشكو أبداً ولا يتكلم، إنها لا تتحدث إلا مع "الكنار" الصغير الذي اشترته "سلمى" تحكي له في الصباح عما ينتظرها من عمل، وتطلب منه أن يغرد لسيدتها "سلمى" ويخبرها أن موحا

تحبها كثيراً.

عندما كانت في التاسعة من عمرها وقعت عن السلم الخشبي حين كانت تغسل الشباك الزجاجي، وأدى ذلك لحدوث عرج طفيف في ساقها اليسرى، بسبب تأخرها في العلاج، وإهمالها للتمزق الذي طال الأنسجة، ولم ينتبه أحد إلى حالتها إلا بعد ذلك بأيام حين تضخمت القدم وصارت موحا عاجزة عن السير، وبعد تلك الحادثة صار "ابن سيدها" يضيف إلى شتائمه السابقة كلمة "العرجاء".

في هذا الصباح الذي داهمتها فيه آلام أسفل البطن، بعد ذاك الجرح الذي سببه لها "ابن سيدها" استدعتها سيدتها "سلمى" كانت موحا توشك على إخبارها عن الدماء التي تسيل من داخلها لكنها صمتت وخافت أن تدخل "سارة" إلى الغرفة وتلمحهما يتكلمان معاً، فيؤدي ذلك إلى عقابها بالمبيت في القبو. طلبت منها "سلمى" أن تأخذ الكنار وتذهب به إلى صديقتها "اسمهان" التي تسكن في الشارع المقابل، لأنها قررت أن تستبدل الكنار "بطيور الحب" الملونة.

أحست موحا بغصة شديدة حينما أدركت أنها ستفارق الكنار، وكادت تقول: "اتركيه لي". لكن من أين لها الحق

بالكلام؟

حملت موحا القفص الذي يسكن فيه الكنار الصغير، وخرجت من الفيلا، لتسير إلى بيت أسمهان، كانت حزينة، دموعها تسيل بغزارة، والطريق الأسفلتي البارد يشعرها بالتزحلق وهي تسير عليه.

عبرت من أمامها سيارة مسرعة، دفعتها أرضاً، ورشقت كل ثيابها بالمياه الموحلة، القفص الصغير لم يعد في يدها، حاولت القيام بعد أن تجاوزها السائق بلا اهتمام لكن ساقيها لم تطاوعنها على الحركة، أرادت الصراخ، صوتها أيضاً بدا مخنوقاً، نظرت إلى الرصيف، كان قفص الكنار مقلوباً، لكنه بعيدا عنها، لم تستطع أن تميز إن كان الطائر في داخله أم لا.

أحست بيد صغيرة ترفعها عن الأرض، إنه صبي في مثل سنها تقريباً، ساعدها على الوقوف، وهو يقول مشيراً إلى أحد الدكاكين تعالى لتنظيف ثيابك، دكان أبي هنا، كانت تنظر إليه بخوف، وتردد، ثم صرخت.

الكنار الكنار..

سارت نحو القفص وسار الصبي معها بسرعة، هتفت بفرح

وهي ترفع القفص الخشبي الكنار مازال حياً، مازال حياً، حينها نظرت إلى وجه الصبي، بدأ لها حلو الملامح، سألته من أنت؟

قال: – أنا كريم ابن صاحب الدكان، تعالى لتغسلي يديك عندنا، أبي رجل طيب. رافقته موحا وهي تمسك القفص بفرح، استقبلها الرجل بابتسامة وهو يطلب منها أن تدخل إلى الحمام لتغسل يديها وتمسح الوحل عن ثيابها، ثم علق بأنه شاهد السيارة وهي تتجاوزها باندفاع وتوقعها على الأرض.

حينما خرجت من الحمام قال لها الصبي الصغير:

– ما اسمك؟

– موحا

– وماذا يعني موحا؟

سألها وهو يبتسم ويرفع صوته سائلاً أبيه:

– بابا تقول إن اسمها موحا، ماذا يعني "موحا"؟ خجل الأب لعدم معرفته الأجابة فقال، أسأل معلميك.

كانت موحا تمسك القفص وتستعد للابتعاد، وكريم يقول لها: غداً سأسأل المعلمة عن معنى اسمك، عودي مرة أخرى

لأخبرك بالإجابة، ابتسمت له وهي تقول: سأعود "إن استطعت ذلك".

سارت وهي تضم القفص إلى صدرها لتتابع نحو بيت أسمهان وهي تفكر: ماذا تعني موحا؟

٢٠٠٢/٢١/٣٠

صورة مشروخة

"الذكريات التي يختزنها المرء تصنعه".

تذكرت هذه العبارة وأنا أتأمل الصورة، كم تعنينا الصور على صفحات الجرائد حين نعرف من يسكنها، وخصوصًيا إذا رحل عن عالمنا، لكن نظري عاد يسرح لبعيد، من هذا الطابق المرتفع.

أنظر إلى لامكان، لا شيء يشد بصري أبدًا، لا زرقة السماء، لا بعض الغيوم الشاردة، كنت أطالع السماء وأتابع اللاشيء، كيف حدث كل ذلك؟ وكيف كنت سأساعدها دون أن أخسر سمعتي وأصدقائي وكل من حولي؟ رحلت فجأة، وعادت فجأة، اتصلت بي هاتفة بخوف:

فاطمة، ليس لدي أنت ، إن لم تساعديني أنتِ، فلن يساعدني أحد. إن الأمر مجرد فخ، ثقي بي، ثقي بأيامنا معًا. بدت من صوتها المرتعش كغريق ينظر إلى كخشبة خلاص، لم أستطع إلا إجابتها بتعاطف "لن أتركك".

كانت سحر من أكثر الفتيات تميزًا وسحرًا لم تكن الأجمل بل الأكثر دهشة وإثارة، كانت شقراء، زيتية العينين، نحيلة، شعرها تقصه بشكل "كاريه"، كل الأشياء حولها تمر عبر قلبها ثم عقلها، حتى أحكامها الشخصية على الناس والمجتمع، فلا يهمها أن تتورط من أجل التعاطف مع قضية أو فكره أو شخص ترى أنه على صواب، أحيانًا كنت أحس بداخلها نواة لشيء اسمه "التطرف".

تعرفت إليها في العام الأول من قدومي إلى بيروت، كانت تسكن معي في بيت صغير للطالبات، وسرعان ما توطدت العلاقة بيننا وصرنا صديقتين. كنت أدرس الحقوق، وكانت تدرس الإعلام في الفرقة الثالثة، لذا كانت منطلقة ومتحدثة تحاور وتسأل يحس الآخر نحوها كما لو أنه التقي بها من قبل، كانت مرشدتي في كثير من الأماكن التي أجهلها وكنت أسر بالتجوال معها في شوارع المدينة، ومرافقتها في تغطية بعض التحقيقات الصحفية.

من أكثر الأشياء التي أثارت دهشتي فيها تلك الغرفة الصغيرة التي تجسد مزاجها الصاخب بالحياة، في وسط الغرفة

سرير صغير إلى جانبه مكتبه بخمسة أرفف، تضم كتبًا متضاربة الموضوعات، طاولة صغيرة اختلطت فيها الأوراق بالكتب، وأقلام الكتابة بأدوات التجميل على الحائط صورة "غيفارا" وعبارات لفلاسفة غربيين وأقوال مأثورة، ولوحات مرسومة بتوقيع "سحر"، ولعبة صغيرة "لبابا نويل" يبدو عليها القدم. كنت أدرك في تلك الأثناء، أنها مرتبطة في علاقة حب مع "وائل" زميلها الذي تخرج وعمل في الصحافة، أحيانًا كنا نلتقي ثلاثتنا في الجامعة أو على كورنيش البحر، وكانا يبدوان لي في غاية الانسجام والتآلف أو هكذا كنت أرى الأشياء حينها.

فجأة، خفت كل ذلك الصخب، وانطفأ بريق الحياة في عينيها، صارت تتجنبني بتعمد لتمضي معظم أوقاتها في عزلةٍ اختيارية، في غرفتها العجيبة.

رغم مرور الزمن مازلت أذكر بوضوح تلك الليلة، كنت قد حسمت الأمر، إنها تعاني من علةٍ ما، كثر ترددها على "الحمام" وصوت القيء الذي تحاول نكرانه كي لا يصل إلى مسامعي.. لم يتبادر إلى ذهني أبدًا نوع المشكلة التي تعاني

منها، لذا حين ارتفع صوتها بالنشيج والبكاء، فتحت باب غرفتها دون أن أستاذنها في الدخول، حينها أصبت بهلع حقيقي لأن ذاك الشعر الأشقر الجميل المصفف بعناية، والمقصوص عل شكل "كاريه" لم يكن إلا باروكة موضوعة جانبًا، بينما كانت سحر تمزق شعرها وتصرخ. كانت شبه صلعاء. لم أكن أصدق ما أراه. "سحر"، التي شبهتها في المرة الأولى بالممثلة المصرية "نيلي" بكل مرحها وحركاتها الاستعراضية، كيف ظننت أني أعرفها بما يكفي؟ كيف لم أخمن أن وراء تلك الضحكات مجرة من الأحزان.

سرت نحوها كالواقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسي، بالكاد كانت تحس بوجودي كانت تصرخ وتبكي وتردد عبارات غير متصلة وتضرب الحائط، بقبضه يدها، اقتربت منها وأنا أحاول التماسك، في محاولة لتهدئتها، تمسكت بي، ملقية برأسها على كتفي وهي تبكي، فيما كنت أسألها بالحاح، ماذا يجري، ماذا هناك؟ لم تتكلم، لكنها أشارت إلى علبة الأدوية على الطاولة كي أعطيها إياها، كان نوعًا من الحبوب المهدئة مستهلكة حتى نصفها، بعد أن ابتلعت حبتين تمتمت في نشيج كئيب، ودموعها تملأ وجهها:

فاطمة، أنا حامل.

كانت المفاجأة الثانية بالنسبة لي، إذ أحسست أنني أتحرك في فيلم سينمائي وأن كل ما يدور حولي هو محض خيال لأحداث مكررة، مللت مشاهدتها. لم أتكلم، ابتلعني الصمت، بينما دخلت هي في حالة من حالات الهلوسة، والبكاء.

الأيام التالية كانت الأقسى بالنسبة لي، إذ كنت أجهل ما عليّ فعله سوى البقاء إلى جانبها للعناية الصحية بها، لم أفكر بأي نوع من الحلول، إذ لم أكن أعرف عن "سحر" إلا اسم القرية التي جاءت منها، وعلاقتها العاطفية مع "وائل"، ولفت انتباهي أن "وائل" لم يتصل بها طيلة فترة مرضها، لكني فضلت عدم سؤالها في ذاك الحين.

بعد أيام حين تحسنت حالتها قليلاً، قررت مغادرة البيت، عرضت عليها المرافقة، لكنها رفضت بإصرار، حينما عادت كانت في حالة منهارة تمامًا تشبه حالتها الأولى، لكن هذه المرة بدت أكثر حدة وانفعالاً، كانت تهذي، وتكرر اسم "وائل" تضرب على بطنها، ثم تطلب الموت. ولم يكن أمامي

حينها إلا إعطاؤها الحبوب المهدئة التي تناولتها في المرة السابقة.

قررت البحث عن رقم "وائل" في هاتفها المحمول. أخرجت الرقم من ذاكرة الهاتف، ثم قمت واتصلتُ به من هاتفي الخاص، وطلبت لقاءه حالاً.. أجابني بأنه سيلقاني لكن بعد ساعتين من الزمن في المكان نفسه الذي اعتدنا الجلوس فيه على كورنيش البحر.

ملامحه كانت معجونة بالتوتر والقلق، حاول مداراة انفعاله باختلاق حديث مفتعل عن الدراسة، وكلية الحقوق، وطرق النجاح وما فيها من محسوبيات. ثم قال وهو ينفث دخان سيجارته: هذا البلد لم يعد يحتمل، سأغادر فور أن أخذ التأشيرة بعدأسابيع..

- تغادر..؟!

كررت الكلمة بهلع، وكأنني أحسست أنني سأترك وحيدة مع سحر من دون أن أملك حلاً لمشكلتها.

قلت:

– جئت أكلمك بشأن "سحر".

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يتمتم:

– إذن أخبرتك.

– لا لم تخبرني، بل عرفت من خلال حالتها الصحية.

ثم تابعت: سحر تقول إنك والد الطفل، وأنك تخليت عنها وهي في حالة سيئة جدًا الآن، إنها منهاره تمامًا.

اندفعت بالكلام والوصف، وكأني أرجوه المساعدة.

ارتفعت نبرة صوته وهو يقول:

– هذا غير صحيح، أنت تجهلين الكثير من الأمور، لقد ظللت إلى جانبها حتى اللحظات الأخيرة، لكن كفي، لم أعد أحتمل خداعًا.

قلت بسذاجة:

– خداع، عن أي خداع تتحدث؟ هي تحبك.

هدأت نبرة صوته قليلاً ثم قال:

فاطمة، استمعي إلي، لم أكن لأريد التحدث في هذا الأمر لكنك تجبرينني على ذلك، أنا كنت أعرف بمرض "سحر" العصبي الذي أصابها بعد تعرضها لحالة الاغتصاب منذ سنوات، ولتمسكي بها كنت آخذها إلى جلسات العلاج النفسي عند طبيب مختص، وبالفعل بدأت تتحسن وعاد شعرها لينمو من جديد، ثم توطدت علاقتنا وكانت تتردد على في بيتي، واتفقنا على الزواج، ولم أكن لأتراجع أبدًا، إلى أن صار بعض الأصدقاء يذكر أمامي أنها على علاقة مع شخص آخر، وبالفعل بدأت ألاحظ منها بعض التصرفات الغريبة، وكانت قد صارحتني بموضوع الحمل قبل ذلك بأيام. حين واجهتها بما سمعت مع تأكدي أنني رأيتها برفقته لم تنكر، بل صرحت لي أنها على علاقة كاملة معه، حينها جننت وطردتها من منزلي، اليوم عادت وأتت إلى تطلب إيجاد حل لمشكلة الحمل، طلبت منها أن تؤكد لي إن كان ابني أم لا، فأجابت بأنها "لا تعرف"، صرخت في وجهها وطلبت منها الذهاب.

بانت في عينيه أثر الهزيمة والحزن ووجدته يكرر كلماته قائلاً:

- فاطمة، لو أنها تؤكد لي أن هذا الطفل هو ابني، أنا مستعد لمسامحتها، فاطمة هل تعرفين أي شيء آخر؟

كانت الأحداث السابقة تتوافد إلى مخيلتي، وكلماته أصابتني بحالة من الذهول التام، دفعتني للتأكد من أني لا أعرف أي شيء، ثم تركته ورحت أسير لمدة ساعة من الزمن حتى أحسست بالإنهاك فعدت إلى المنزل.

لم أجد "سحر"، كان باب غرفتها مفتوحا، وهاتفها متروك على الطاولة، اتصلت "بوائل" وأخبرته، فأجابني أنها من الممكن أن تكون غادرت إلى الضيعة، وسيتصل بي في حال معرفته مكانها.

بعد مرور ثلاثة أسابيع عادت سحر إلى المنزل، لتأخذ شيئا من أغراضها، بدت لي مختلفة تمامًا، وكأنها شخص آخر قادم من عالم الأشباح، شاحبة، ناحلة يبدو عليها المرض، قاتمة منهكة، حاولت سؤالها عن أيام غيابها، عن حالتها الصحية، لكنها لم ترغب بالتجاوب معي، وظلت جملها مقتضبة وغير موصولة، أحيانًا تضحك بشكل هستيري وهي تدخن، وتؤكد لي بأن علاقتها مع ابن النائب الذي سيأتي

لينقلها بسيارته الآن سوف تنتهي بالزواج، ثم تعود للحديث عن "وائل" بأنه خسرها للأبد وأنها لا تفكر بالعودة إليه. كانت هذه هي المرة قبل الأخيرة التي رأيتها فيها لكن قدومها في مثل هذه الزيارات الخاطفة تكرر أكثر من مرة إلى أن طلبت منها صاحبة الشقة مغادرة الغرفة تمامًا.

المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، كانت بعد ذلك بأعوام، بعدأن تخرجت وبدأت في التدريب في مكتب أحد المحامين المعروفين، كان ذلك لدى عبوري "شارع الحمرا" مساء برفقة أحد الأصدقاء، كانت تقف إلى جانب مقهى "ومبي" مع شاب أجنبي، ممسكة بيدها زجاجة بيرة، وترتدي بنطالاً شفافاً يلتصق بجسدها، وبلوزة قصيرة تكشف عن بطنها.

رغم تغير ملامحها استطعت تمييزها، لكنني تابعت طريقي وإحساس حاد بالحزن والرثاء يملأ داخلي. وكلما كنت أذكر "سحر" تعود إلى ذاكرتي صورتها الأخيرة في الشارع، وأتساءل "أين الحقيقية"؟ من كان كاذبًا أو من كان صادقًا؟ من الذي ظلم؟ لكن رغم ذلك لم أستطع العثور على إجابه.

إلى أن جاءني اتصالها الغريب في تلك الليلة، تطلب مني

النجـدة ودون سـؤالها عـن أي شـيء كنـت قـد وعـدتها بالمساعدة. لكن بعد أن وضعت سماعة الهاتف، وبعد أن برد صوتها في داخلي، عاد إلى التردد والخوف من لقائها، من وجودي معها، من تلويث اسمي وسمعتي، في المرة الثانية تجاهلت هاتفها، وفي صباح اليوم التالى أبصرت صورتها في الجريدة في حادثة قتل غامضة مشبوهة، جاء في الخبر، بأن أجهزة الأمن لم تستطع التعرف على صاحبة الجثة ترى ماذا كانت تريد أن تقول لي ؟

٢٠٠٣/١/٤

أحلام تغسل الماء

تنزع ورقة الشوكولا عن الجزء البني المغلف، تقضمها بشراهة تحت أسنانها، القطعة الأخيرة تحتفظ بها في فمها وتبدأ بمصها بهدوء، لا شيء يشعرها بالنشوة لدقائق سوى تناول ألواح الشوكولا بأنواعها المختلفة. تعاود الجلوس على سريرها، تلتف تحت الغطاء، العالم ضبابي جداً، كم تخاف العتمة، يرعبها الظلام والأشباح التي تتسلل من فمه.

"أدري أنني لا أشكل إلا حجراً في رتابة هذا الكون وعبثيته، إنه لا يحتاج وجودي، ولا يلفظني خارجاً، كم هو عدد الذين لا يحتاج الكون وجودهم؟ كثيرون ربما، وأنا بين آلاف الملايين التي يزيد عبء وجودها على هذا الكون، حياتي لها غموض الموت ورماديته، لماذا يظنون أن الموت أسود رغم أنه يأتي متلفحاً بالرمادي، وأحياناً بالبني الغامق يشبه لونه ألواح الشوكولا، في أدراجي هناك الكثير من أغلفتها، لا أحب التخلص من أوراق الشوكولا تأملها يشعرني بمتعة خفية.

عندما كنت صغيرة كنت أحتال على صديقاتي أضع الرمل مكان الشوكولا ألصق الأغلفة وأعطيها لهن، كانت تلك مداعبات الطفولة، منذ أيام حاولت أن أعطي لأحلام قطعة من الشوكولا لكنها هزت رأسها ولم تبال بي، كانت مشغولة بغسل الماء، كلما رأت مياه المطر تهطل تسرع إلى البهو الخارجي تبدأ بتعبئة المياه من الحنفية في دلو حديدي ثم تضعه تحت المطر ويبدأ المطر بالسقوط على الماء المعبأ من الحنفية، وأحلام تستمر في عملها تعبأ الدلاء وتضعها تحت المطر، لا أحد يسأل أحلام عن أسباب وضعها الماء تحت المطر. الكل يعرف أنها تغسل الماء، لا ينتهي عمل أحلام إلا مع توقف المطر، حينها تحس بغبطة غريبة تغطي مساحات وجهها المثلث الصغير، حواف بنطالها يسيل منها الماء، بلوزتها القطنية رطبة، لكنها ترفض خلعها. تقف أحلام وتبدأ بحمل الدلاء المقدسة إلى الداخل، لا أعرف ماذا تفعل أحلام بالماء بعد ذلك، تستحم به، تشربه؟ "ربما تخبئه للصيف حين يغيب المطر".

لا يصدقها أحد، تقسم لهم أن الأشباح تخرج ما أن يفتح الظلام فمه، وأنها تسحبها معها، وتلقيها أرضاً وتبدأ بجلدها، لكنهم لا يصدقون، تكره جسدها، تراه دميماً، صار أسود من

آثار السياط التي تسقطها الأشباح عليه، تتكور على نفسها بشكل جنيني، تخبئ رأسها، عيناها مغمضتان، لن تفتحهما لأنهم سيأخذونها معهم، ما حاجتها إلى فتح عينيها، تحفظ جيداً كل محتويات الغرفة، بجانب السرير طاولة صغيرة عليها أوراق بيضاء، وأقلام حبر كثيرة، كرسي بلاستيك برتقالي قبيح. يرقد قرب دولاب الملابس البني ذي الدرفتين، هناك قطعة موكيت صغيرة من اللونين البرتقالي والبني، كم تكره البرتقالي، لأنهم يتخذونه وسيلة لإشعال ألسنة اللهب في غرفتها. كلما كانت غافية بهدوء، ونسيت العتمة وتقلبت يميناً ويساراً، لو فتحت عينيها وأبصرت الكرسي البرتقالي ستجد النيران تشتعل به، وتتوهج كلما نظرت أكثر، وتقترب النار منها، تزحف نحو كل ما في الغرفة، تلتهم دولاب الملابس، السجادة والطاولة الصغيرة، وتزحف نحوها، برتقالية جداً، ينهمر من مساماتها سائل أسود يروي النيران فتشتعل أكثر، "تصرخ لا أحد يستمع إليها".

حاولت أن أقول لهم أن أحلام ستمرض وتموت من البرد لو أنها استمرت في حمل دلاء الماء، وربما تصاب بداء صدري يودي بحياتها.. يرعبني رحيل أحلام، من سيغسل الماء لو

ماتت؟

ضربات قوية على الباب، يد كبيرة تسحبها خارج رقعة النار، تمسكها من شعرها، تهزها بعنف، تحس أن شعرها قاس جداً وجاف على رقبتها، يشبه أسلاك تنظيف الصحون في قسوته، كم مضى عليها منذ استحمت آخر مرة، لا أتذكر، اليد الكبيرة التي حركت خصلات الشعر، تدفع إلى فمها ثلاثة حبوب من الدواء، واحدة بنية، واثنتين من اللون البرتقالي، ضوء النهار يغمر الغرفة، لون مصباح النور برتقالي يشبه لون جلسات الكهرباء أيضاً.

عشق أباد

إهداء: إلى غالية ضاهر لأن بوابات العشق موحدة

غفت في تلك المدينة البعيدة، ذبلت وهي تبحث عنهم، أين هم؟ رحلوا بعيداً، مضى عليها آلاف السنين هنا، تنتظر. شابت خطاها، ترجوهم البقاء لكنهم يرحلون في كل مرة عنها، بعد أن يلقوا بفتوحاتهم فيها .كم أوهموها بنصرهم، تنخدع، وتعود لتصدق، هي بلاد العشق التي أمها الجميع، وركعوا عند قدميها يطلبون عشقا صافيا كخيالاتها عنهم، يتذوقون رحيق الغيث الأول وتغمرهم نشوة لا يقدرون على احتمالها، فيرحلون.

"لن أبحث عنهم، لن أجوب طرقات العالم أبحث عن وجه أعرفه ليحتضن نهايتي لن أغسل عيني بشفقتهم، كلهم عرفوني، وما عرفتهم أبداً. في المرة الأولى، أتي إلي قائلاً إنه سيسكنني لأنني عشق بلا حدود، بعدها غادر بعيدا أبعد مما أبصر".

لن تصلح هذا العالم الفاسد، ولن تنجح بتمزيق كل حجب الوهم والوصول إلى يقين مطلق، مازالت أسربة خيالاتهم تلوح من بعيد كغلالة من الشفق، عبثا تحاول الوصول، لكنهم يرحلون.

"قال لي: ليس مني، خذيه، ارميه، اذهبي عني بعيداً وألقيه في بحيرة التماسيح، أمامي كثيرٌ من الغزوات والفتوحات والانتصارات ربما لن أرجع أبداً إلى هذه الأرض، إنها لا تصلح إلا للعشق، والعشق نهايته الموت، ولا أريد أن أموت. حملته وليداً بين ذراعي لففت ذراعه بتميمة عشقي ووضعته هناك حيث ينام الصغار، ويلعبون، ويأكلون ويحملون أسماءً غير أسمائهم الحقيقية."

تحاول إدراك حكي الأماني لكنها كطفل صغير تعارك أشباح السراب، وولع يبحث عن الأكثر، عبثا لا تجد فينتهي الكلام، وينذوي الشغف لأنها لم تعرف أبداً حجم البحر ولم تدرك بعد السماء.

"انتظرت كل مواعيد الأرض، والقطارات الآتية من بعيد عساهم يعودون، لكهنم لا يذكرونني أبداً، كم كانوا ينتظرون

على بابي ليلاً وعند الفجر يمسحون أعينهم بالهرب مني ونسيان ما يخشون تذكره.

من خلف الأسوار كنت أرقبه، هانئاً كملاك، غافلا لا يدري أبداً خفايا علقم العشق وسواده قالوا:" إن رجلا ثريا تبناه سيأخذه ويرحل بعيدا "من يومها عرفت أنني لن أبصره ثانية، ولن أسمع ضحكات عينيه وأرى فراشات شعره الأشقر.

" تنادي في مواسم النيروز، ربما يعودها أحدهم، مازال قلبها أخضر، وتحلم بأن يسكنه عاشق يندر لها شمعة كل مساء ويشعل نجومها فرحاً. لم تيأس لأنها أرض العشق التي لا تنتهي ولم تكتشف بعد كل مجاهلها.

"وجهه يشبه فرسان الحكايا، بدا آتيا لتوه من أزمنة الحنين.. أنا متعب خذيني إليك أحتاج أن أغفو قليلا وأنسى من أين جئت، أنهكتني الحروب والمعارك، أتعبتني منازلة الموت، أريد أن أحيا، أن أقبض على الذهب بين ذراعي، وأنام على حرير سخي، وأركض في قصوري وجناتي، و أريد أن أسمع رنين أساورك في أذني ليلاً."

أرادت أن تسأله إن كان صادف في أسفاره صبياً ورجلا

ثرياً يرحلان معاً من بلد إلى بلد، ويطوفان الدنيا التي لا تعرفها، لكنها صمتت، لم تقل له إن فيها جنات لم تكتشف بعد وأن عليه البقاء معها ليرى، نام في ذراعيها متعباً، وعند الفجر لملم كل عدته وعتاده ورحل.

لم أبصر وجهه بعد تلك الغفوات، أوسمته ونياشينه المعلقة على أشجار بيتي نزعها قبل مغادرته، هل فطن أنني سأبوح له بأن هناك ما يدغدغ أحشائي، فأسرع هارباً، أي نوة عشق تعصف بي فتلقي ببذوري إلى المجهول.

من أين تأتي بكل هذا الأمل؟ وكيف تخبئ إيماناً بالعشق وتدعي أنها خاوية؟ منذ أول مرة صدقتهم فيها وهي تواصل ابتهالها وتقديم القرابين لأوهام لا تملك لها يقيناً، تنادي، فلا يسمعون، ولا يعود رجع الصدى.

"طفلة حمراء الشعر، بلون العشق، أورثتها تميمتها، وتركتها أمام باب تستطيع أن تتمتع خلفه بالعيد حين يأتي على الأطفال، صفير الريح ليلتها يعوي ويدمدم ،وهي تترنح ألماً لتتخلص من إرثه.

لماذا أنا موصومة بالعشق؟ لماذا هم يعشقون ويرحلون بلا

أي أثر يدل على عشقهم؟ كما يصعدون الجبال ،ينزلون الوديان يجوبون الصحاري، ويسلكون الثلوج، يعبرونني ،يخلعون أمتعتهم، يرتاحون، ينامون، بلا بصمة حزن أو فرح تؤكد عبورهم.

كم صار عمرها؟ لا تدري.. كم مضى عليها وهي تقوم بطوفانها الدائري عائدة لنقطة الانطلاق؟ لقد نست كل صلواتها القديمة وقرابينها وابتهالاتها التي كانت تتقرب بها لآلهة أوهامها السرمدية، بحثت كثيراً عنهم، مازالت تذكر ملامحهم، لكنهم ما تذكروها أبداً، عادت إلى مدينتها البعيدة، إلى نقطتها الأولى وغفت.

لون مر

مصاب هو بالحنين الجارف إلى لون غائب يبحث عنه يتنفس عميقاً كلما تهيأ له.

تقتات بصيرته من ألوان الطيف الحقيقية للروح فتبزغ من داخله تصورات، وحده يدرك عمق التصاقها بكيانه، هكذا هو من الممكن أن يحب عبر الهالة اللونية التي لا تخطئ أبداً، لأنها بريئة ونقية، منزهة عن التركيبات المعقدة.

ربما يبدو ما أعاني منه حفنة من الأوهام الخاصة بي، تشبه في طولها واتساعها كتلاً من المدن العائمة، لكنني متأكد أنني لا أبصر من الأشخاص إلا ما يحيط بهم من لون لا يتشابه مطلقاً بين شخص وآخر، إنها إشعاعات لونية متفاوتة، مشعة أحياناً عند البعض، ومتدرجة بين بريق الحليب الأبيض ولمعان لون الكراميل وسخاء تدرجاته، من البيج إلى الذهبي المتماوج بالعسلي. وجوه أخرى أبصرها قاتمة، تتصاعد قتامتها من لون الغبار إلى بقع البترول اللزجة التي تحاصر أرواحهم فأراهم يتحركون كأشباح كل همها تحسس جيوبها المنتفخة. ليست الحكاية عندي قدرة على الاستبصار اللوني بقدر ما هي لذة

اكتشاف الهالات ومراقبتها عن بعد وقرب، بعضها يبدو مستساغاً في البداية بنكهة لونية غامضة تثير لديك إحساساً بالشغف العارم، لكن فيما بعد تكتشف أن هذا ليس إلا ظلال واهية، وأن الهالة المتخيلة التي أبصرتها لم تكن إلا سراباً ربما كان هذا التمرس على استكشاف الهالات ومعرفتها لم يكن إلا احتياجاً مني للعثور علي ما يتواءم مع هالتي التي لم أرها، ولم أعرف لونها".

يحاول جاهداً عبر لعبة الألوان أن لا يسمح لأي جرح أن يطال أعماقه لن يتيح للتكنولوجيا ولا للثورة المعلوماتية أن تشوش على بوصلته اللونية وتفقده الاتجاه.

"لن أستطيع البوح، ولن يصدق أحد حقيقة إدراكي اللوني الذي ينبعث من أعماقي، قد يبدو بعضهم قبيحاً للغير، لكني لا أبصره كذلك، لأن هالته اللونية تبرق بشعاعات من فجر الطفولة، وفرح الشباب.. أنا لا أكترث بالحجم أو الشكل، لا أبالي بتضاريس الجسد، وتقاطيع الوجه، لا تعنيني هذه التفاصيل التي يمكن أن يعالجها بخفة جرَّاح تجميل ماهر.. يأسرني فقط الشعاع المنبعث من الكتلة المتحركة، أحب، أكره، أصادق أنفر وأبتعد فقط من نظرتي إلى الهالة اللونية التي لا

تفصلني عن الحقيقة بل إنها دليلي للمعرفة ووسيلتي للاكتشاف".

أبصرها من بعيد يشع منها اللون الغائب، هي كما رآها عن بعد مزيجاً من تسلسل ألوان الغسق والشفق، الفجر والسحر، أية زلزلة لونية أحدثتها داخله تلك الفتاة الغجرية، الطفلة المفعمة بكل هالات الأمل.

"أخيراً صمت التردد، سكت القلق، وتلاشت كل الألوان المعتمة. لقد وجدتها إنها لوني الغائب الذي أبحث عنه، هي الزهرية البيضاء، الفضية الوردية، الذهبية، الشاحبة المشرقة، السماوية، الهائمة بصفاء شارد خلف إشعاعاتها المركبة من روح قوس قزح وامتزاجه بالشعاعات الفضية المنسابة على الراقصة تحت ضوء القمر.. وحدها اخترقت مساحتي واتساع مدني لتواصل إطلاق ألوانها الخرافية داخلي.

معا يفصلهما مربع خشبي بلون التراب، حين حدق في عينيها هبطت روحه إلى متاهة الألوان وغاصت بوصلته في رمال الحيرة وعصفت به الرياح اللونية.

أريدك قلتها، وأنا أشرح تأثير هالتها عليّ للمرة الأولى

تكلمت عن الألوان وعن بصيرتي اللونية وإيماني بالهالات كانت تستمع إليّ بصمت وهدوء، مسربلة بألوانها الأسطورية غير المكتشفة بعد. غمرتني سعادة وردية، وردية تماماً، وأنا أتأمل عبقها المبهر الذي غمر كياني، لكن رويداً رويداً بدأت سحابة صفراء تغمرها تطغي عليها، وعيناها تطوفان بي، تحدقان في هالتي، برودة قاتمة السواد، وصمت جليدي بدأ زحفه البطيء نحوي قبل أن تطلق عبارتها الأخيرة قائلة: "إن لونك مر لا يتناسب مع لوني".

محطة نيويورك ..بئر ستُكهولم

(١)

مضى كل شيء الآن. انتهت الحكايات، وبدأت حكايات مختلفة، منذ اللحظات الأولى التي وصل فيها إلى نيويورك، صار لزامًا عليه أن يتقبل أن الأمر الثابت الوحيد هو «التغير»، لذا عليه أن يراقب لا أكثر، وألا يتشبث بأي شيء، مدركًا أن الأشياء كلها ستمضي، كما مضت حياته السابقة.

ولو كان يعرف أنه سيصل إلى نيويورك، وأنها ستختار الهجرة إلى استُكهولم، ما كان استغرق طويلًا في تلك الحكاية، ووضع لها تخمينات متعددة مثل لعبة المرايا، التي تعكس وجهًا في كل جانب.

لكن الآن كلاهما ترك المدينة التي أحبها، هجرها نحو بلد آخر بإرادته.

فيما مضى كان غيابها لفترات من الزمن ثم ظهورها

المفاجئ يسبب له شكًا في حقيقة وجودها في حياته، المساحة الصغيرة التي تحتلها في فضاء الغرفة حين يلتقيها، ثم حضورها الغيبي الذي يطغى على واقعها المادي يربكه لأيام بعد أن تغادر. لو حاول الآن تذكر تفاصيلها فلن يحضر في ذهنه إلا صوتها المتردد المتسائل دومًا، واسمها المكون من ثلاثة أحرف: سحر.

فتح نافذته المطلة على المحطة؛ في أيام سكنه الأولى كان يزعجه صوت عجلة القطارات، لكنه اعتاد إيقاعها الآن، وبات أليفًا إلى حد أنه صار يحفظ إيقاعه. مطر كثيف يعكس ظلالًا، سيدة خمسينية تمسك مظلتها وتركض، الرجل الأفريقي المتشرد الذي يراه كل يوم يجلس على الأرض فوق قطعة من الكرتون لن تحميه من سيل الماء الجارف، سرعان ما سيتحرك إلى أطراف المحطة.

غمرته بهجة وجود سقف يحتمي تحته. فكر أنه لا يمتلك الشجاعة لدعوة ذاك الرجل المشرد إلى بيته، مهما قال عن ذاته إنه قادر على المغامرة، في أعماقه يدرك أنه ليس كذلك. وأن كل محاولاته للانعتاق من التشبث لم تنفعه تمامًا.

ماذا يحدث عندما يسير اثنان على خطين متوازيين، لا يتقاطعان أبدًا؟

ظل يؤرقه هذا السؤال.

مبدأ بسيط من مبادئ الرياضيات لم تنفع الكلمات في تغييره. وظلت كيمياء العلاقة معزولة بحاجز من تردد.

أحدهما يمعن في الكتابة والآخر يمعن في الصمت، وكل منهما يراهن على الآخر، أحدهما يراهن على الانتظار، وتعليق الأمل على حبال كلماته، علها تأتي بسحر ما يجعل الخطين يتقاطعان، بينما الآخر يراهن على توقف هذه الكلمات التي تسبب له الاضطراب وتعبث بأسئلة غافية في روحه.

كلاهما يوغل في السير بعيدًا على خطه، وكلاهما يبصر الآخر ولا يبصره، لنقل أنه يبصره ويتجاهله. كلاهما يعرف أن الآخر موجود في مكان ما من هذا العالم. كلاهما يدرك الآخر. وكلاهما يستمر في تجاهل الرغبة بتحويل هذا الإدراك إلى واقع، الخوف من الواقع، من مواجهة الحقيقة يجعل كل منهما ثابتًا في مكانه.

لقد بدأت قصتهما مع الحرب، لهما بداية مشتركة بدأت

كوقع القنابل، بدأت كما تبدأ الحرب، واستمرت كما تستمر الحرب تمامًا طالما أن أحد الطرفين يواصل فعل الكتابة، والحكي بشغف عن موسيقى «كيتارو» العازف الياباني الأعمى الذي يؤلف موسيقى مستوحاة من صوت المياه في حقول الأرز. يكتب عن «جيهان» محبوبة الشاعر عمر الخيام التي أرادت أن تكون ملكة، فاغتالها الموت، وعن صورة جوليا روبرتس وجورج كلوني، وعن الشلال المجنون الذي يندفع للغرق بلا وجل.

وفي مكان ما، في بلد بعيد، صاقع، كان أحدهما يفتح نافذته كل يوم صباحًا.. نافذة شاشة كمبيوتره، ويسير على ذات الخط، يقرأ الحكايات المرسلة له، مع ارتعاشة في القلب واليد، ثم يغلق الشاشة بصمت، بلا أي رد فعل خارجي.

يستمر الآخر في تأليف الكلمات ومدها على طول الطريق، كان يرش الأحرف مع كل خطوة، كما يرش السكر على طريق النحل. يتوارى وينسج شرنقة حول نفسه ارتفعت حتى طوقته وغدا وعيه عاجزًا عن التملص منها.

في منتصف الطريق لم يعد ما يشده المنطلق ذاته الذي بدأ

منه، لقد نمت خلال سيره خيوط صغيرة كانت تشبكه بالأرض، ترتفع لتزنره بدبابيس يستحيل معها الرجوع للوراء.

لم يعد زمن ما قبل الحرب، مثل ما بعدها، كما لم يعد زمن ما قبل السير على الخط يتشابه مع السير نفسه. الآن ليس أمامهما سوى الانتظار، انتظار نهاية الخط، أو تقاطعه.

(٢)

قرب البيت الذي تسكنه عند أطراف استُكهولم، وفي الحديقة الشاسعة التي تشبه غابة صغيرة، توجد سناجب تتسلق الأشجار بخفة، ثم تنزلق لتمر قرب البئر الدائرية التي تشبه حفرة قديمة، تمنت أن تعرف حكاية البئر، من كان حولها؟ وكم من الزمن مضى على وجودها؟ هنا لا أحد يبوح لها بالحكايات. تجلس قرب المقعد المواجه للبئر، وترى في قرارة ذاتها أنها تحمل في صدرها ظلًا لها. أعجبتها هذه الفكرة فكانت تمشي خطوات نحو البئر الجافة، ثم تنحني لتضع وجهها على الأرض عند العشب المصفر قليلًا، لا يوجد في قعرها إلا ظلمة، وشغور كثيف. كانت مستغربة أنهم لم يقوموا بدفن هذه البئر الصغيرة وإخفائها عن الأعين تمامًا، لِم تركوها هكذا، منسية، ومهملة، ألكي تأتي هي وتعيد صلتها مع العالم! ذات مرة

وضعت رأسها في الحفرة، وصرخت، أحست بأن الغابة كلها سمعت صراخها، وأن الطيور فزعت وطارت عن الأشجار.

ليس ثمة شيء قادر على أن يجلب لها المسرة، سوى مراقبة تلك المرأة التي تأتي إلى هنا مع توأمين، حين يكون الطقس صحوًا. كانت تراقب العائلة بفرح، فيما تقضم تفاحتها الحمراء، لم ترغب بالقيام بأي محادثة مع الأم، فقد كانت ترغب بمتابعة تلك العائلة الصغيرة بنظراتها فقط، عائلة بلا أب، فكرت إن كانت تلك المرأة تربي طفليها بمفردها. لكنها لم تتيقن من شيء، لذا اكتفت بالابتسام لها ومراقبة التوأمين اللذين يركضان على العشب. ذات مرة علقت ساق أحد الصغيرين في فتحة البئر، مما دفع الأم إلى تقديم شكوى إلى المسؤولين عن الحي، لطمس معالم البئر القديمة. وهذا ما حدث. صارت سحر تأتي لتجلس على المقعد الخشبي المواجه للبئر المدفونة، يغمرها إحساس أن هناك ما دُفن في داخلها أيضا. صار منسيًا، ومهملًا، مثل البئر التي اكتشفتها يومًا.

لم تعد تقصد الغابة كثيرًا، صارت تمضي أيام العطل على الأريكة قرب شاشة التلفزيون. ذات مرة استوقفتها صورة شاطئ يستمتع الناس بالجلوس على رماله بغياب الشمس في

جو هادئ رومانسي، ثم تلا هذه الصورة لقطات أخرى لضفة مجاورة فيها بيوت مهدمة يقف أصحابها على الأطلال. أي صورة هي الحقيقة؟ ظل هذا السؤال يرهقها طوال اليوم، لأنه قلب في داخلها كل ذكرياتها عن الحروب التي رقدت في ذاكرتها، وتركت الدمار والعبث.

في عملها كمترجمة، كانت تلتقي هؤلاء القادمين من ضفة البيوت المهدمة، تترجم بحرفية ما يقولونه عن حياتهم، تنقل بصوت محايد وصفهم لحياتهم غير الطبيعية.كان لهم مظهر طبيعي جدًّا، وذكريات غير عادية. مثلها تمامًا. لا يمكن لأحد أن يكتشف أي ذاكرة تحملها في تلك الجمجمة الصغيرة.

(٣)

في نيويورك، عرف طعم الحرية، وعرف أيضًا كيف تكون الحياة الطبيعية. الحياة من دون حروب ورصاص، ودم، وخوف، لكنه لم يكن سعيدًا. كان يواصل الحياة في العالم الذي بداخله، يحمل تفاصيله معه.

نبتة حبق صغيرة في شرفته، لامس أوراقها المائلة إلى الاصفرار، صب الماء على تربتها المتشققة، تشربته كله، أحضر

هذه الشتلة من امرأة عربية تعرف إليها صدفة في السوبر ماركت، كانت تشبه أمه، وتبحث عن أنواع من الأطعمة يعرفها جيدًا، حين توطدت علاقته معها ومع أولادها الشباب أهدته نبتة الحبق تلك. في شرفة الدار في بلده، كانت أصص الزرع تصطف على مصطبة صغيرة «ريحان»، «ورد جوري»، «فم السمكة»، «حبق»، «غاردينيا». نساء العائلة ترشها بالماء صباح كل يوم. خبز التنور تتسرب رائحته إلى أنفه، صخب العائلة وأولاد الجيران يدفع للصحو. كان يحب زهرة الحبق، لا تظهر رائحتها القوية إلا بعد أن يفركها بكلتا يديه.

هل البعد عن الذكريات يضفي عليها هالة من الغموض القدسي؟

مرت هذه الفكرة في باله وهو يتذكر مدى رغبته في الرحيل، في الابتعاد، مدى يقينه أن الأشياء وصلت إلى حد من التشوه تصعب مداراته بغطاء رقيق.

بعد أسابيع قليلة ستذبل نبتة الحبق، ستموت، وستمر أشهر قبل أن يعاود رش بذورها لتنمو من جديد.

في زمن البدايات، كان يعرف أنه سيتمكن من نسيان

سحر لو كانت تواصل غيابها بلا أي بارقة ظهور، وكان من الممكن فعليًا أن ينسى تأثير وجودها المغوي الذي يستمر لأيام،لكنها حين تعاود الكتابة له عبر الإيميل أو عبر الرسائل الهاتفية القصيرة يعود لدائرة تذكره لها، ربما لهذا السبب لا يمكنه نسيان عبارتها التساؤلية التي كتبتها له بعد لقائهما الثالث قائلة: «هناك ما يسير بمحاذاة الحب والرغبة، هل تعرفه؟»، تترك أسئلتها معلقة في الفراغ لا تنتظر إجابته ولا تلح عليها، فيما هو يركن للصمت والتجاهل ربما رغبة في الفرار وربما خوفًا جنونيًا من أسئلة يفرضها الحضور كما يفرض الغياب أسئلته. لكن مزاجها الضبابي الغامض لم يكن ينفع مع مدينة مثل بيروت فصولها محددة وواضحة المعالم، بيروت الماطرة بغزارة أيام الشتاء، الموجعة في شمسها أيام الصيف لا يتماشى طقسها مع مزاج سحر المائل إلى العتمة، بيروت مدينة تكشف مسراتها وأوجاعها بإفراط.

ظلت سحر مرتبطة في خياله بالعواصم الضبابية، ومدن الليالي البيضاء، ربما ستجد ذاتها أكثر في ذاك الطقس الغامض، لكنه لم يخمن أبدًا أنها ستسافر إلى استُكهولم، وستكتب على صفحتها في «فيسبوك» عن الضباب الكثيف،

والليالي المضيئة.. وفي الوقت الذي اعتاد هو السير تحت وهج الشمس متصعلكًا بالتمتع بدفء شمس الربيع كانت هي تخبره أنها لا تحب فصل الربيع لأنه فصل ضعيف لا حضور له وشمسه فضولية تتجسس على حياة البشر. حكى لها أنه يحب احتساء البيرة في حانة على الرصيف، والاستماع إلى عزف مجهول في الشارع، لكنها قالت إنها تفضل مشاهدة فيلم على شاشة الكمبيوتر.

ذات مرة، قبل فراقهما كتبت له على ورقة بيضاء «أحب أصابعك». وظل حائرًا لا يعرف كيف يفسر كلماتها، وكيف يربط بين ما تقول وما لا تفعل. كيف تعبر عن أحاسيسها بجرأة ثم لا تتوانى عن الاختفاء لأشهر تخلق بعدًا يدفع الكلمات للنسيان، كلما نظر لأصابعه تذكر رغبتها بملامستها وإقصاء هذه الرغبة وتلاشيها بين ظهور وغياب.

يومها فكر أن الحل الوحيد أمامه في أن يقلب دفة الشك ويحول وجودها المفترض والعبثي في حياته إلى أمر حسي ملموس. لكنه أبدًا لم يفكر بالحياة معها بقدر ما كان شغوفًا برؤيتها وهي ثملة، لم يكن بإمكانه تخيل أن يلمسها في سريره ويحول كل تلك التساؤلات إلى واقع ملموس من الممكن أن

ينتهي بعد لحظة فيض.

ظل مولعًا أكثر بفرضيات يبنيها ويهدمها عن طبيعة علاقتهما. ردد في داخله كلمة الولع واعترف لنفسه أنها الكلمة المناسبة التي تتماشى مع تخيلاته، اعترف لنفسه لأول مرة أنه يساهم في بناء وجود «سحر» المتخيل في حياته، ويستعذب أكثر البحث في اللغة عن المفردة المناسبة التي تصف أحاسيسه.

كان مولعًا بالانتظار، وكانت مخلصة للغياب.

(٤)

هدير القطارات يزحف داخل رأسها، جرس الكنيسة يرن فينبهها أن وقت البرد سينتهي حتمًا ذات يوم.

أنين خافت، تتنهد.. ما زالت تنتظر إذن. هذه المدينة نقية جدًّا، معقمة حد الملل، الهواء ثقيل وجارح، يكاد يؤذي رئتيها.

في شارع مجهول لا يعرفها فيه أحد يتسلل أزيز إلى جسدها، أزيز تتداخل فيه الأصوات المنهكة، يلامس الأعصاب العارية فيتحول إلى طنين يذكرها بوحدتها، كل

الوجوه غريبة هنا، تقف أمام سوبر ماركت، تشتري عصير أناناس، فيتامين سي يقاوم البرد، تتجرعه على أربع دفعات، تلقي العلبة الكرتونية الصغيرة في سلة القمامة وتمضي.

هل كان عليها التأمل أكثر للتأكد أن كل الوجوه غريبة هنا. لا تعرف متى ستنتهي خطواتها؟

تجهل أن الشوارع تتشابه إلى هذا الحد، وأنها تتناسخ بصمت، لا تميز بينها إلا عندما تكتشف أنها عتيقة إلى حد لا يصدق.

ظلت لزمن تظن أنه يهتم حقًّا بما وراء التفاصيل الصغيرة والحكايات المتشابهة.. وبالطفلة السمراء التي تجلس على السلم الكهربائي المتحرك، والبنت الغافية على العشب في حديقة عامة. النهايات أتت مبكرة، ولم تفكر بالسؤال عن الأسباب.

كيف لم تدر أن الصقيع يأتي متنكرًا أيضًا، بلا استئذان؟

في البيت، غيرت الأماكن، بدلتها، لعبت لعبة الألوان المشعة، الأرجواني والبرتقالي والأصفر، ألوان سيطرت على جدران المنزل الصغير. حكت لذاتها قصة قوس قزح، لا شيء

تغير. سأم يتراكم.. طبقاته سوداء بين كل طبقة وأخرى غبار يتكثف. تتسلل إلى أنفها رائحة خبز ساخن. فرِح عابر ينزِع أوراقه الذابلة، ورقة.. ورقة من خلف طبقات السأم.

في قاعة الفن التشكيلي تشدها لوحة "لمونيه"، امرأة راحلة؛أو امرأة أتت لترحل. يتلاشى وجهها مع ضباب الألوان، هل كان عليها الرحيل أولًا؟ أن تتركه في ذلك المقهى وتمضي وحدها.

يومها، بردت قهوتهما، وضعت فيها كثيرًا من السكر، ولم تذهب مرارتها، كانت تقول له:

«كيف لم ننظر من النافذة لنعرف أن الثلج بدأ في السقوط؟».

كم كانت متطرفة في الايمان بوهم البدايات، وكم كان محايدًا. حاول إقناعها بتشابه الكلمات والقصائد والحكايات.

كيف حاول إقناعها بهذا، وكيف صدقته؟

هي الآن أيقنت، أن الكلمات لا تتشابه، كما الأحزان. طرق كثيرة لنهايات مختلفة. كيف لم تواجهه بكلماتها، لمَ اكتفت

بالإنصات إليه ثم مضت؟

(٥)

كان يحكي لها عن بطل قصته «أمنية موت» وعن بطله حارس الهواء الذي يسعى لبناء جدار حول الكرة الأرضية ليعزلها عن الفضاء الخارجي، هكذا صار يكتب لها بين حين وآخر عن أمنية يهجس بها بطله وتتلخص في رغبته بأن يموت وهو يضع اللبنة الأخيرة في عزل الأرض، أمنية تبدأ وتنتهي مع الرغبة، الرغبة في البناء للعزل، ثم الرغبة في الانتهاء أي الموت والخوف العارم بينهما. هكذا أحس في لحظة ما بإعجاب شديد نحو بطله وأحلامه الوجودية التي لن تتحقق لا بالبناء ولا بالهدم، تخيل أن بطله يقف على حافة الكرة الأرضية، ويطوقها بشريط أحمر ليشرع بالبناء ثم فجأة يسقط منتحرًا قبل أن تتحقق أمنيته.

في ذاك الوقت، كان يوازي تخيلاته عنها برغبة مضمرة في الإيلام، حيث إن فعل الإيلام وحده سينقل وجودها في عالمه من خانة الحضور الغائم المشبع بالضباب والغموض إلى خانة الوجع. على أحدهما أن يجرح الآخر ليتأكد من حقيقته.

لماذا لا يسحب منها طرف الخيط ويتحكم وحده باللعبة منهيًا بذلك كل تساؤلاته حول وجودها ككل في عالمه. في تلك اللحظة رغب أكثر أن يراها ثملة جدًّا، أن يقدم لها زجاجة نبيذ أبيض تحبه، ويتأمل وجنتيها المتوردتين وضحكاتها الرائقة. تذكر مشهدا من رواية «عالم بلا خرائط»، تذكر موت البطلة. ماذا لو أمسك بيد «سحر» وجرحها بموس حاد وهي ثملة، حتما لن تتمكن من مقاومته. في تلك اللحظة حين يشاهد دمها الأحمر يتدفق من يدها ويسيل على يده يلامس أصابعه التي تحبها سيتأكد حتمًا أنها كانت حقيقية.

لم يتعلم بعد وسيلة تخلص ذاكرته من تفاصيلها المتناثرة. رائحة القهوة المرة التي تحبها، قفازين من الدانتيل يتذكرهما كلما لاح له لون أسود، دمية يابانية صغيرة من الخشب تزين مكتبته أهدتها إليه يوم ميلاده وقالت إنها تحتفظ بدمية مشابهة. شموع كثيرة بألوان مختلفة توقدها كلما اتقدت بها رغبة الرقص. يشتاق إليها، يرعبه هذا الزحف البطيء لافتتانه الذي ظن أنه تلاشى بعيدًا.

لم تكن زوجته، ولا حبيبته، ولا عشيقته، كانت المرأة القادرة على إيلامه بلا رحمة، بينما هو مشغول بترتيب

تفاصيلها الصغيرة. يحاول عبثا أن يفكك تركيبة ما يجمعه بها، لكنه كلما توغل في تحليل ذلك الوجع الذي ينتابه كلما اقترب من عالمها، يدرك أنه في كل خطوة يسير نحو تفسخ مشاعره. كانت حالته إدمانًا مدمرًا للأعصاب. كان مدمنًا على الوجع، وموقنًا أن أعصابه ستصل للتحلل لو ظل موغلًا في هواها. لم يكن في علاقتهما فرح منتظر، هناك انتظار دائم، وقلق، وتساؤلات تشبه المستحيل معلقة بين هاويتي الفراغ.

ثلاث قطع مستديرة عاجية اللون دفعته للبكاء، للشك، للهذيان، بأنها لم تتزين بها من أجله. رنين الأساور في يدها أتعبه، وحسم أمره. فرح غامض في عينيها يلوح مع تصاعد الرنين ثم خفوته كسيمفونية مكتوبة عن عمد لتدخله في دوار صاعق. فستانها الأبيض، الأساور العاجية وكل هذا الهدوء لا يمكن أن يكون أداة للقتل. لكن لماذا يتذكر الخنجر البارد كلما سمع رنين الحلقات الخافت، يميل متوازيًا مع ظلال حكاية تخفيها؟

صارحته أنها ذهبت للقاء رجل غيره، أدرك صعوبة ما تود قوله عندما تمدّد معصمها الأيمن على الطاولة وخفتت حركة الأساور في يدها. كانت أصابعها ترسل تكتكات على الطاولة،

وخنجرٌ فضي بارد وحاد يتمدد مع صوتها. رغم زوال الحكاية وقِدَمِها ما زال صوت رنين الأساور يدوي في أذنيه. إنه ذات الرنين الذي سمعه من قبل.

(٦)

البحث عن حياة موازية، مفترضة، بديلة، كان يجب أن يكون هاجسها. أفول سريع خارج السيطرة يدفعها للفرار واعية بعمق ضرورة التحرر.

ينبغي السفر بعيدًا جدًّا.. الرحيل.. اختيار زمن بدايات جديد. لم تكن استُكهولم اختيارها، بل فرصة عمل تشبثت بها للفرار بعيدًا.

ليس ثمة حقيقة لأي شيء، ليس ثمة ثبات.

هل كان عليها اختبار هذه الحقيقة الوحيدة عبر التخلص من كل المسلمات التي استكانت إليها طوال الأعوام الماضية، أن تنظر إليها بسخافة قبل أن تحطمها وتقف على السطح الأملس.

ثمة حقائق مشتركة كانت بينهما ليس لها صلة بالعصب

الحساس للعلاقة، حقائق بسيطة في ماهيتها ووجودها، ليست بحاجة إلى مراجعة، أو اختبار لأهميتها، مثل العلاقة مع المدن البحرية، ومع صوت فيروز، والجدل الساذج حول أغنية «الوقت والحب».

لكن الآن تحس بمدى قدرته على التحطيم عندما كان يحرضها على التخلي عن هذه الحقائق، تجاهلها تمامًا والبحث عن غيرها. لم يكن بمقدورها أن تكذب عليه، أن تخفي وجود ظل آخر في حياتها، وأنها عاجزة عن استقراء مشاعرها. خمنت أنه سيُقدر مغامرة البوح تلك، لكنها أخطأت، وصار على كل منهما أن يهدم كي يبني من جديد.

قبل نهاية العلاقة يبدأ الخطر بالتكون من لحظة تفكير كل طرف بنقاط ضعف الآخر وعيوبه، وتتحول هذه المعرفة إلى رصيد احتياطي يُستخدم لاحقًا.

بعد النهاية، يبدأ الرقص الصامت في العتمة، رقص يجعلك تدرك أن هناك من يرقص، لكنك لا ترغب في إبصار حركته، تلمح جسدًا في الفراغ، يتلوى رغبة في الصراخ، لكنك تتجاهل بصمت مزعوم.

من سيشعل النور أولًا؟

من سيكون الأجرأ على المواجهة؟

بعد النهاية تبدأ مبارة الألم في تنافس محموم غير معلن يقول:

من سيجرح الآخر أكثر.. من سيصل أولًا إلى العصب الحساس، يعريه من الجلد واللحم ويتلهى بموته؟

فكرت هي في هذا الأمر لحظة تأكدها أن البشر يبحثون دومًا عن بدايات جميلة لعلاقاتهم، لكنهم لا ينشغلون أبدًا بالنهايات. لا أحد يخطط لنهاية أنيقة تخفي التجاعيد المتهدلة للعلاقة.

النهاية تأتي مشوهة غالبًا.. تتراكم على بدانتها كل التفاهات والخلافات والتصدعات غير المرئية. فجأة يعي أحد الطرفين أن جسد العلاقة تضخم إلى الحد الذي لا يمكنه الرقص برشاقة، إلى الحد الذي تصير فيه العتمة جزءًا أساسيًا من أي تواصل. وكلاهما ينتظر أن يضيء الآخر النور ليشهد الخطوط المتقطعة للنهاية المبتورة.

(٧)

لا يعي هو بالضبط متى بدأت تتكون كرات الانعتاق تحت جلده. كما لا يعي متى صار أكثر إبصارًا لبدانة علاقتهما وترهلها، هل بعد مصارحتها له بما لم يكن ليعرفه لولا بوحها بالحقيقة، أم بعد ذلك بكثير؟ لا يعي اللحظة التي صار فيها صوت «فيروز» باردًا، وأصبح السير على شاطئ البحر مخيفًا حد الغرق. وأمسى عطر نبتة «الحبق» مملًا.

ربما بدا الأمر مع الإحساس المتراكم بالضباب، الضباب الذي يظهر على الشاطئ، وفي أغنيات «فيروز» الغامضة التي تبحث عن حلول لأسئلة معلقة بلا إجابات حتمية.

الضباب يؤدي لاضطراب في الرؤية، اضطراب لا ينقطع، بل يتكثف، ويميل بلا وعي واضح نحو العتمة.

يصير الدخول إلى المساحة المظلمة أمرًا محسومًا يحتم القيام بفعل ما للتخلص من كل الرعب والهلوسات التي تفرضها العتمة، حين تتداخل تفاصيل الجسد ببشاعة، معلنة عن وجودها من دون الكشف عن هويتها، فقط تؤدِّي حركات بهلوانية راقصة في فضاء أعمى.

يتأمل هو تلك التفاصيل في العتمة والصمت، لا يعلن عن وجوده أمام جسد العلاقة البدين والعاري يغرق في عزلته، وفي قراره الحتمي بالرحيل المؤجل، ثم قبل مغادرته بقليل من الوقت، وبحركة مباغتة تمامًا يشعل النور.. نور ساطع حد الاحتراق، وتحت هذا الوهج المتدفق تتضح كل الأشياء والتفاصيل. يبدأ الجسد بالتضاؤل رويدًا رويدًا، يتلوى مثل حشرة مسحوقة تحت وهج الشمس، ليست هناك محاولة لقتل رحيم، للتعجيل بنهاية أنيقة تحترم الجسد وتداري عريه بغطاء أبيض يلفه قبل ذهابه لمثواه الأخير.

هل كان عليه أن يشعل النور أولًا؟

(٨)

لكن سحر رأت أن النهايات لا تأتي دفعة واحدة بل تتسلل بخفة وصمت، بحيث يمكن إعطاء البطولة لما يسبق النهاية. وكي لا تكون التفاصيل متشابهة كنشرات الأخبار، قررت هي أن تضع نقطة ما قبل النهاية، تماما كما نمسك بجهاز التحكم ونغير المحطة قبل أن تكمل المذيعة الجميلة والأنيقة عبارتها عن كارثة ما. ففي نشرات الأخبار تتكرر الأنباء ذاتها عن مزيد من العنف، لتؤكد أن الإنسان مفتون برائحة الدم.

هل الوجع يكون مع النهايات فقط؟ أم أنه يسبق ذلك؟ أو يأتي بعده بكثير من الوقت؟

لم يكن الوجع في حدث النهاية. لكن النهاية تكون مرادفًا لغياب الثقة.. الثقة.. كلمة فضفاضة وسمت علاقتهما في البدايات.. كانت تبحث عن سبب الوجع عند الفراق، تفتش عنه بين خطوط كفها الذي تتلهى بقراءته كل يوم، ثم تكتشف دروبًا جديدة في مسالكها الشائكة.

كانت تحكي ببرود في لقائهما الأخير قائلة بمنطقية:

«إذن دعني أُسَمِّ ما حدث بيننا أزمة ثقة.. لا.. لا دعني أكن محددة أكثر لأقول أزمة ثقتك بي، نهايتها في لحظة تدميرها، نسفها، كما نُسف برجي التجارة العالميين في نيويورك».

في أحيان قليلة تحس بأنها تشتاق إليه، ذلك الشوق السخيف الذي يدفع للتفكير بالاتصال به تمر بها لحظات صراع بين لحظتين من الزمن، ثم تهنئ نفسها لأنها لم تستسلم لهنة تلهف مفاجئ ليس لسماع صوته، بل لسماع رد فعله على الاتصال. هكذا تتشكل لعبة تضاد عبثية، تشبه لعبة المربعات في فيلم «البحث عن السعادة»، حين يجاهد البطل (وول

سميث) – عقله – لتركيب المربعات ذات اللون الواحد على ذات الخط.

مازالت لعبتها تنتصر حتى الآن في تخمين حياديته لدى سماعه صوتها وتجنب مواجهة هذه الحيادية التي ستبدأ من ادعاء المفاجأة بالاتصال وتتدرج إلى تبادل الأسئلة الروتينية «عن الصحة والحياة»، ثم تذكر حدث ما مشترك، ربما يكون عابرًا في ماهيته، لكنه يرتبط مثلًا بكتاب كانا يقرآنه في ذات الوقت. مثل هذا التدرج، صارت تعرفه بدقة، كما استطعت أن تدرك عوالم روايات «كونديرا»، بعد أن أدمنت قراءته لأشهر. في زمن ما كانا يقرآن رواية «الخلود» في الوقت ذاته، وكلما توغلا فيها كانت تذكره أن بطلتها وجدت من تخيل مفترض، أي إنها لم تكن بطلة فعلية.

في حلم تلك الليلة قال لها إنه ليس عليها أن تقلق لأن الهيكل العظمي لعلاقتهما تفتت بالكامل، وتحول إلى عظام مسحوقة. أكد لها أنه شاهده بنفسه وهو ينهار ويتفتت.

كانت مندهشة من كلماته ولا تعرف هل عليها تصديقه أم لا.. لأنها في تلك اللحظة لم تكن قد فكرت بالأمر ولم تعرف

حقًّا إن كان التآكل الحقيقي لعلاقتهما قد وصل إلى العظم أيضًا. في الحلم ذاته أكد لها أيضًا أن بمقدورهما الآن أن يتعاملا مع بعضهما كشخصين جديدين ليس بينهما أي ماضٍ سابق، ولا أية حكاية تهددهما بالعودة إلى سابق عهدهما.

في تلك الأثناء كانت تفكر كيف تآكل ذاك الهيكل العظمي الضخم لعلاقتهما، وأين ذهبت فتات العظام؟

بعد حرق الجثة عند بعض الطوائف الدينية التي تؤمن بالحرق للتخلص من جثث الموتى يُحتفظ بالرماد في قارورة تُلقى في مياه النهر لتمضي الروح في رحلة عبور جديدة.

تمنت أن تعرف ماذا حل بفتات هيكل قصتهما التي ظلت تؤرقها طويلًا لأنها لم تجرؤ على سؤاله. كان من الممكن أن يقول لها إن فتات الهيكل قد تناثر في الهواء وإن كليهما لم يقم بجمعه، هو ربما لأن الأمر لا يعنيه، أو لأنه لا يؤمن بأهمية جمع بقايا الفتات في قارورة وإلقائها إلى النهر أو البحر لتدفن تمامًا، وهي لأنها لم تعرف أبدًا ببداية عملية التآكل.

لم تنكر أن الأمر لم يحزنها كثيرًا، لكنها لم تكن مسرورة، وفي الوقت عينه ما زالت عاجزة عن تلبية دعوته للتعامل كشخصين

جديدين، بهيكلين يحملان ذاكرة بيضاء مفرغة من أي تفاصيل، لأنها ما زالت غير واثقة تمامًا من حدوث تآكل تام للهيكلين القديمين، كما أنها تعرف أن الحياة قائمة على لعبة كيمياء لا أكثر، تحدث بين شخصين، تفاعل ما يولد القصص تلو القصص، وأن مسألة البدايات والنهايات مسألة نسبية بين الأشخاص.

ففي الوقت الذي يزعم فيه أحد الطرفين أن كل شيء قد انتهى يكون الآخر ما زال ينقب عن التفاعل الأول الذي أنشأ كل هذه التركيبات، ليعمل على صياغة معادلة جديدة تمامًا. لذا لم تكن تؤمن تمامًا بالنهايات النهائية، ولا بالبدايات التي يراها أصحابها، كان كل شيء من وجهة نظرها متروكًا للزمن المفتوح.

لكن حلمها بالنهاية بتفتت الهيكل العظمي لعلاقتهما، بقوله لها عن تلك النهاية الأكيدة رأته أكثر حقيقة من النهاية الفعلية لقصتهما.

ربما منذ البداية التي تراها هي كان كل شيء عبثيًا وقائمًا على تركيب معادلات غير واقعية، معادلات تقوم هي بالتسلية

بها في لحظات ما قبل النوم.. اللحظات الطيفية قبل أن تتداخل الحقائق مع أشياء أخرى لا اسم لها لتصير أحلامًا.

النهايات كم تكون فاتنة في بعض الأحيان، كم تترك غموضًا حول فاعلها.

أمسكت الورقة بكلتا يديها.. ما تبقى كان بعض سطور بيضاء، خطوط سوداء طويلة، وبقعة حبر في النصف، أمسكت القلم وبدأت تحركه بشكل عشوائي، خربشات من أعلى الصفحة إلى أسفلها، خربشات كثيرة لم تترك مساحة ضوء صغيرة. جمعت الورقة في يدها وألقت بها إلى سلة المهملات.. أمسكت ورقة بيضاء جديدة ناصعة تمامًا، كزت سن القلم، كانت تفكر في كلمة البداية.

الفهرس